

انسجام التداولي في النص/ الخطاب بين لسانيات النص والدرس اللغوي العربي القديم

عواطف السمعي

(كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة _ تونس)

تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١ أبريل ٢٠٢٦ م

الملخص :

تتناول هذه الدراسة مفهوم الانسجام التداولي في النص/الخطاب من خلال مقارنة تجمع بين لسانيات النص الحديثة والدرس اللغوي العربي القديم، سعياً إلى إبراز نقاط التقاطع والتكامل بين التصورين. وتنطلق الدراسة من التحول الذي شهدته اللسانيات المعاصرة من التركيز على البنية الشكلية للغة إلى الاهتمام بأبعادها التداولية والاستعمالية، حيث أصبح النص وحدة لغوية كبرى تُدرس في سياقها التواصلي، مع مراعاة قصديّة المتكلم، وأحوال المخاطب، ومقتضى الحال.

وتعتمد الدراسة على المنهج المقارن التحليلي، من خلال استقراء المفاهيم التداولية في لسانيات النص الغربية، مثل دور السياق والأفعال اللغوية في تحقيق تماسك النص، ثم موازنتها بما ورد في التراث اللغوي العربي من مباحث النحو والبلاغة وأصول الفقه، التي أولت عناية كبيرة بالمعنى والسياق ومقاصد المتكلمين.

وتخلص الدراسة إلى أن الانسجام التداولي ليس مفهوماً مستحدثاً في الفكر اللساني الغربي فحسب، بل له جذور عميقة في التراث العربي، حيث أدرك العلماء العرب الأوائل أهمية البعد التداولي في تحقيق الإفادة وربط أجزاء الخطاب. ومن ثمّ تدعو الدراسة إلى تبني رؤية تكاملية تجمع بين المقاربات الحديثة والتصورات التراثية، بما يسهم في بناء نموذج أكثر شمولاً لتحليل النصوص والخطابات.

الكلمات المفتاحية:

(الانسجام التداولي, لسانيات النص, الخطاب, التراث اللغوي العربي, السياق)

Abstract :

This study examines pragmatic coherence in text and discourse through a comparative approach that bridges modern text linguistics and classical Arabic linguistic scholarship, aiming to highlight points of convergence and integration between the two frameworks. The research is grounded in the shift within contemporary linguistics from a focus on formal structures to an emphasis on pragmatic and functional dimensions, where the text is viewed as a macro-linguistic unit analyzed within its communicative context, taking into account speaker intention, audience conditions, and situational context.

Adopting a comparative analytical methodology, the study explores key pragmatic concepts in Western text linguistics, including the role of context and speech acts in establishing textual coherence, and contrasts them with classical Arabic linguistic traditions in grammar, rhetoric, and legal theory, which have long emphasized meaning, context, and communicative intent.

The study concludes that pragmatic coherence is not solely a modern Western construct, but rather a concept deeply rooted in the Arabic linguistic heritage. Early Arab scholars demonstrated a sophisticated awareness of pragmatic dimensions in achieving meaningful and coherent discourse. Accordingly, the study advocates for an integrative perspective that combines modern linguistic approaches with traditional insights to develop a more comprehensive framework for analyzing texts and discourse.

Keywords:

(Pragmatic coherence, text linguistics, discourse, Arabic linguistic heritage, context)

المقدمة :

اتسع مجال البحث اللساني ليشمل أبعادا عدة، لم تكن تدخل ضمن مجال البحث اللساني البنيوي. وصارت شروط إنتاج الملفوظ عناصر جديدة بالدراسة. وأصبحت الأنماط التعبيرية المختلفة للغة سواء أكانت حوارا أم محادثة أم نصا مبنيا (structuré) على شكل فقرات ومقاطع ومواضيع جديدة بالدراسة. وصار ينظر إليها على أنها أفعال ذات أبعاد، ووظائف اجتماعية ومؤسسية. وضبطت القوانين الخطابية، التي تحكم كل ما يتلفظ به من ملفوظ. ولم يعد الحديث مقتصرًا على مستوى واحد للغة (nouveau unique langue) وهو المستوى الشكلي والمصرح به (le niveau formel explicité) بل هناك المستوى المعنوي المضمرة الذي يعرف يتوسل عناصر اللغة ممزوجة بعنصر السياق

المتعدد الأبعاد. وظهر مصطلح " لسانيات الخطاب" الذي يشير إلى أسلوب آخر في إدراك اللغة، أسلوب يهدف إلى مقاربتها في إطارها التواصلية الاستعمالي فقد أصبح ينظر إليها بوصفها خطابا تفاعليا ضمن سيرورة اجتماعية متغيرة يراعي فيها قصديه المتكلم ومقتضى الحال والمقام.

ومن هذا المنطلق نشأ هذا العلم الجديد الذي يهتم بالخطاب/ النص ويدرس تماسك وتعلق أجزائه حتى يكون وحدة كلية تؤدي أغراضا ووظائف معنية في مقامات تبليغية، معتبرا أنّ النص هو الكم الكلي للإشارات التواصلية في تفاعل تواصلية بين منشئ النص وملتقيه. ويعتبر الانسجام التداولي من أهم المفاهيم والمسائل التي عالجها هذا الفرع المعرفي الجديد فلسانيات النص علم جديد يدرس النص/ الخطاب كوحدة لغوية كبرى فيحقق تماسكه ويؤوّل انسجامه اعتمادا على مجموعة من الأدوات والمبادئ المعنوية والتداولية. إلا أنّ صلة علم النص/ الخطاب بالدراسات اللسانية الحديثة لا يعني أنّه ولد في كنفها حصرا فهو علم الطبع والتذوق للعربية. كما أنّ المقاربة التداولية للانسجام النص لم تتفرّد بها لسانيات النص فحسب. فقد داخل تحليل النص/ الخطاب تداوليا في الدرس اللغوي العربي القديم كلّ فروع المعرفة نحوا وبلاغة وعلوم القرآن وتفسير، و درست الأعمال اللغوية ضمن مباحث نظرية الخبر والإنشاء وراع النحاة والبلاغيون وعلماء القرآن في دراستهم هذه المباحث الجانب الاستعمالي للغة، فاهتموا بدراسة السياق والمعاني ومقاصد المتكلمين وأحوال المخاطبين كما راعوا مبدأ الإفادة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال وهو ما يؤكد وعيهم بالجانب التداولي للغة.

لذلك سوف لن نقتصر في دراستنا لتحليل تماسك النص تداوليا على النسخة الغربية وإنّما سنبحث في النسخة العربية عن نقاط تقارب وتقاطع بين الإطارين المختلفين من حيث الحقبة التاريخية والنظام المعدل ذاتيا والمجتمعين حول " تمكين المعنى والاحتياط له" ^١. رغبة في الوصول إلى تكامل بين التصورات التراثية القائمة على مقتضى الحال والمقاربات اللسانية الحديثة في مجال تحليل الانسجام وتماسك النص تداوليا. سندرس في القسم الأول الانسجام التداولي في النظرية الغربية من أعمال لغوية وسياق ودورها في الربط التداولي لأجزاء النص/ الخطاب ، أمّا في القسم الثاني سنركز الاهتمام على آليات الانسجام التداولي في المدونة اللغوية العربية من أعمال لغوية ومن مقام وسياق ضمن مبحث النحو والبلاغة والدرس الأصولي.

١- الانسجام التداولي من منظور عربي

١-١ مفهوم الانسجام

يعتبر مفهوم الانسجام لصيقا *inhérent* بمفهوم النصّ ومكونا له بل إنّه "يعادل مفهوم النصّ ومفهوم النصية"^٢. على حدّ تعبير لاند كيست Lunquist فهو إذا شأنه شأن الاتساق يعدّ مظهر من مظهر النصية. ويتحقق الانسجام وفق ويلش "wilch" في التواصل اللغوي حين يستعمل المتكلم بعض الوحدات اللغوية كوحدة قاعدة النص: *a text base unit* وبواسطة الموضوع *theme* والتوسعات *the expands* فيبدا في عملية التدرج بترتيب متفق للنصّ ويتم مقاطع الوحدات"^٣. وما يمكن الإشارة إليه هو أنّ الانسجام ليس أمرا ثانويا في النصّ إذ المتلفظ المشارك هو الذي يتولى بناء الانسجام "لأن الحاجة إلى الانسجام هي نوع من الشكل القبلي *a priori* للتلقّي الخطابي والحكم الذي يقضي بأنّ النصّ منسجم أو غير منسجم قد يتغير وفق معرفة الأفراد بالسياق والحجّة التي يخولونها

^١ ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٧١.

^٢ Lundquist la cohérence textuelle p17.

^٣ Werhich a text grammar textuelle p30 .

للمتلّفظ"^٤. فمن أجل اكتشاف انسجام النصّ أو عدم انسجامه ينطلق القارئ أو السامع من افتراضين وفق Lunquist :

الأول لا يملك الخطاب في ذاته مقومات انسجامه وإنما القارئ هو الذي يسند إليه هذه المقومات والثاني هو كل نصّ قابل للفهم والتأويل فهو نصّ منسجم والعكس صحيح"^٥.

وقد اتفقت أغلب الدراسات على أنّ الانسجام هو حكم المتلقي مستمعا أو قارئا. فنظرية الانسجام تبرز أهمية الدور الذي يقوم به المتلقي في عملية التأويل"^٦. من خلال التزويد بما يلزم من العلاقات للاستخراج المعنى منه وتتمثل هذه العلاقات في مجموع العناصر المنطقية كالسببية والغائية والقياسية كما تتضمن الأحداث والأعمال والموضوعات في ما يتصل بالتجربة الإنسانية وتفاعلها مع معطيات النصّ.

ويتصل الانسجام برصد وسائل الاستمرار الدلالي الموجودة في النصّ فهو عند هاليداي ورقية حسن "علاقة معنوية بين عنصر وعنصر آخر يكون ضروريا لتفسير هذا النصّ هذا العنصر الآخر والذي يوجد النصّ غير أنّه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق هذه العلاقة التماسكية"^٧.

من خلال هذه التعريفات يمكن القول أنّ الانسجام هو الترابط والتماسك الدلالي والعلاقات والمفاهيم الخفية الموجودة في النصّ والتي يستدل عليها من خلال معارفنا السابقة وكذلك يمكن التعرف عليها من خلال سياق النصّ. وجاء الحديث عن انسجام تداولي نتيجة الوعي الحاصل لدى العديد من الباحثين بقصور المقارنة الدلالية منفردة عن الإحاطة بكل خصوصيات الخطاب وإكسابه معنى. وتعتبر المقاربات التداولية للخطاب أنّ النصّ هو الكمّ الكليّ للإشارات التواصلية في تفاعل تواصلية بين منشئ النصّ ومتلقيه إذ يعرف س-ي سميث (S-J Schmith.) النصّ بقوله: "النصّ هو كل جزء لغوي منطوق من فعل التواصل في حدث التواصل يحدد من جهة الموضوع، وفيه بوظيفة تواصلية يمكن تعرّفها أي: يحقّق كفاءة إنجازية يمكن تعرّفها."^٨ فالتداولية إذا دراسة للعلاقات القائمة بين النصّ والسياق وهي بحث في العلاقات القائمة بين العلامات ومستخدمي تلك العلامات. ويقرّ أغلب الدارسين أنّ "قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي وتصير التداولية من ثمّ جدرة بأن تسمى: "علم الاستعمال اللغوي"^٩.

١-٢-١ الأعمال اللغوية

١-٢-١ الأعمال اللغوية عند أوستين Austin

يرى أوستين أنّ اللّغة ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار ووصف العالم والأشياء. وقد أشار إلى أنّ الفلسفة قد جانبت الصواب في اعتبارها أنّ الأقوال الخبرية المحتملة لقيمتي التصديق والتكذيب هي الوحيدة الجديرة بالدراسة. ولاحظ: أنّ بعض الأقوال الخبرية لا تصف العالم ولا تخبر عن الأشياء ولا يصحّ نعتها بالصدق أو الكذب، وإنّما هي كما يقول خالد ميلاد "إيقاع لأعمال لا تنجز إلاّ بتلك الألفاظ في تلك الأشكال الخبرية، وذلك من مثل أراهن وأبارك وأقبل

⁴Lundquist la cohérence textuelle p37 .

^٥محمد الخطابي لسانيات النصّ مدخل الى انسجام الخطاب : ص ٥٢.

^٦Shirly carter thomas : la cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit Harmattan Paris 1993 p 157.

^٧أحمد عفيفي نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحوي مكتبة زهراء الشرق القاهرة ٢٠١٨ ص ١٠٣

^٨زتسيسلاف وأورزنتاك: مدخل إلى عمل النصّ، مشكلات بناء النصّ، ترجمة سعيد حسن بحيري مؤسسة للنشر والتوزيع مصر ط، ٢٠٠١ ص ٥٨.

^٩مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دار الطليعة بيروت، ط ١ ٢٠٠٥، ص ٦-١٧.

الزواج...^{١٠}. لقد اكتشف "أوستين" في نهاية المحاضرة السابعة أن مفهوم الإنشاء الصريح مفهوم ضعيف، ووجد أن عديد الأقوال التي تتضمن نوعاً من الإنشاء الصريح، وتبدو مستجيبة لشروط الإنشاء تطرح دون أدنى شك إثباتاً، فتكون تبعاً لذلك صادقة أو كاذبة"^{١١}. هذا ما دفعه إلى مواصلة البحث ليتوصل إلى مفهوم جديد هو مفهوم العمل في التلطف، في إجابة عن السؤال الذي شغله وميّز نظريته وكان عنواناً لمحاضراته، وهو ماذا نصنع عندما نتكلم؟ إنَّ كلَّ عمل خطابيٍّ كامل (acte discours intégral) بالنسبة إلى "أستين" يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أعمال تختزل مختلف الوظائف اللسانية. فكل حدث قول يعني تحقّق:

- **عمل التلطف** (L'acte de locution/ locutionary act): ويعرّفه شكري المبخوت بقوله "وهو إنتاج لسلسلة صوتية تعبّر عن صيغ لفظية منظّمة بحسب قواعد نحوية وتحمل دلالة ما أي: معنى وإحالة. أي أنّه عمل قول شيء ما"^{١٢}.

- **عمل مقصود بالقول** (l'acte d'illocution/Illocutionary act): ويتمثل كما يقول خالد ميلاد في ما ينبغي أن يفهم بالقول في الحال كأن يفهم على أنه نصح أو إلزام"^{١٣}.

- **عمل التأثير بالقول** (l'acte de perlocution/ perlocutionary act): وهو "ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر القول"^{١٤}. وقد صنّف أوستين الأعمال اللغوية على أساس جديد مخالف للتقسيم الثنائي التقليدي خبر وإنشاء، هذا التصنيف أقامه الباحث على أساس مختلف القوى التي يمكن أن يتخذها العمل المتضمّن في القول، فقدم قائمة من خمس أصناف"^{١٥}.

- **الحكميات (Verdictives):** وهو صنف الأعمال القضائية ويوافق أفعالاً مثل برأ، أدان وأصدر حكماً وأصدر قراراً وصنّف وقيّم إلخ.

- **الممارسيات (Exercitives):** الذي يوافق شكلاً آخر من الحكم يتصل بما ينبغي أن يكون أمر مما يتصل بما هو كائن، ويضم أفعالاً مثلاً حظّ من رتبته وقاد وأمر وأوصى وعفا ... إلخ.

- **الوعديات (Commissives):** وهي تلزم المتكلم بتبني موقف ما أو بتبني عمل ما. وتضم أفعالاً مثل وعد ونذر وضمن وراهن وأقسم ... إلخ.

- **السلوكيات (Behabitives):** يوافق موقفاً أو رد فعل بإزاء سلوك الآخرين أو وضعيتهم، ويوافق أفعالاً مثل اعتذر وشكر وشجب ونقد وتحدي ... إلخ.

- **التبينيّات (Expositives):** ويستعمل في أعمال / عرض، ويوافق أفعالاً مثل أثبت ونفى وسلّم بـ ولاحظ ... إلخ.

١-٢-٢ الأعمال اللغوية عند سيرل searle :

حاول "سيرل" في مصنفه "الأعمال اللغوية" (١٩٦٩) "التعبير والمعنى" (١٩٧٩) وضع نظرية متكاملة للأعمال اللغوية وذهب إلى أنّ العمل اللغوي يمثل الوحدة الدنيا الأساسية للتواصل اللساني معتبراً أنّ النظرية اللغوية جزء لا يتجزأ من نظرية العمل. واعتبر كما يقول شكري المبخوت، أنّه "من المحال أن توجد قضية دون قوة قولية كتقديم

^{١٠} خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٤٩٤.

^{١١} J.L.Austin, Quand dire, c'est faire, Paris, édition du seuil, 1970, p107.

^{١٢} شكري المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، دار مسكيلياني للنشر - تونس، ٢٠٠٨، ص ٤٦.

^{١٣} خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص: ٤٩٧.

^{١٤} المرجع نفسه، ص ٤٩٧.

^{١٥} جاك موشليير - آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص ٦٦-٦٧.

إثبات أو إلقاء استفهام أو إصدار أمر" ١٦. وعلى هذا الأساس عدّل سيرل التقسيم الذي وضعه "أستين" للأعمال اللغوية وجعلها أربعة وهي:

- عمل إلقاء التلفظ أو القول وهو يقوم على التلفظ بالكلمات أو الجمل.

- العملان القضويان اللذان يوافقان الإحالة والحمل.

- الأعمال اللغوية المتضمنة في القول التي تتمثل في إلقاء الاستفهامات وإصدار الأوامر وتقديم الوعود...

- أعمال التأثير بالقول التي تتمثل في الإقناع والحمل عليه والإخافة ...

اعتبر "سيرل" أن عدة أعمال متضمنة في القول مختلفة يمكن أن تعبر عن القضية نفسها، لذا دعا إلى أهمية التمييز داخل العمل اللغوي بين القضية التي يعبر عنها القول من جهة والعمل المتضمن في القول الذي يحققه من جهة ثانية. ونبّه الباحث في هذا الإطار إلى أنّ التمييز لا يمكن أن يدرك فعلياً إلا في الإنشاءات الصريحة من قبيل: "أعدك أن أحضر غداً". "أحذرك من تدنيس العلم". أمرك بالامتثال للقوانين. كما وضع سيرل تصنيفه للأعمال المتضمنة في القول اعتماداً على عدة شروط ومقاييس لعلّ أهمها الغرض من العمل اللغوي واتجاه المطابقة بين القول والعالم بالإضافة إلى الحالة النفسية المبعر عنها، وانطلق من المبدأ القائل بأنّ لأعمال المتضمنة في القول جميعها البنية العميقة التالية: أنا فعل متضمن في القول + ج" ١٧. وقد اشتملت هذه التصنيفية على الأقسام التالية:

- **الخبريات (أو التمثيليات) (assertives):** يلتزم فيها المتكلم بصدق القضية المعبر عنها، ويكون فيها اتجاه المطابقة من القول إلى العالم. وتصدر عن حالة نفسية تعبر عن الاعتقاد (croyance). وتتمثل البنية التركيبية العميقة للخبريات في: أنا فعل متضمن في القول + ج. ومن أمثلة هذا الصنف نذكر: أثبت، أوكد، أقر، أفترض، استنتج ...

- **الطلبيات أو التوجيهيات (Directives):** هدفها حمل المخاطب على أداء فعل أو عمل معين، ويكون فيها اتجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات، بمعنى سعي إلى أن يطابق العالم القول. وتتمثل البنية العميقة للطلبيات في" ١٨. أنا (إليك) فعل متضمن في القول أنّ ج م ف (في المستقبل)" ١٩. ومن أمثلة هذا القسم: أمر، أطلب، أنهى، أرجو، ألتمس، أحض، أحت، أدعو، أنصح ...

- **الوعديات (Commissives):** وتهدف إلى إلزام المتكلم بعمل ما، ويكون فيها اتجاه المطابقة من العالم إلى القول. وتتكوّن بنيتها التركيبية من: أنا (إليك) فعل متضمن في القول أنّ أنا م ف (في المستقبل). ومن أمثلة الوعديات يمكن أن نذكر: أعد، ألتزم، أضمن، أتعهّد، أصادق ...

- **التعبيريات (الإفصاحيات) (Expressives):** وهدفها التعبير عن حالات نفسية معيّنة تجاه المحتوى القضوي، وهي خالية من كل مطابقة بين القول والعالم. وبنيتها التركيبية العميقة هي التالية: أنا إليك فعل متضمن في القول أنّ أنا/أنت م ف. ومن أشكال التعبيريات نجد: أشكر، أهنيء، أعزّي، أعتذر، أشجب، أرغب، أندد...

- **الإيقاعات (Déclaratives):** وهي صنف الإنشائيات التي مثلت أول ما أثار انتباه "أوستين" ولاحظ أنّه بمجرد إنجازها في ظروف مناسبة تحدث حالات في الكون أو تحدث "صدق محتواها القضوي" ٢٠.

فمجرد النطق بعبارة الطلاق مع توفر الظروف والشروط التي حصرها الفقهاء مثلاً يعتبر إيقاعاً للطلاق وإيجاداً له يترتب عليه ما يترتب. هذه الإيقاعات تستلزم، كما يوضّح ذلك "سيرل"، مؤسسة غير لغوية إذ يكون الإنجاز ناجحاً

١٦ شكري المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، ص ٧٨.

١٧ ج= جملة.

١٨ م ف= مركب فعلي.

١٩ جاك موشليير- أن ريبول، القاموس الموسوعي التداولية ص ٧.

٢٠ المرجع نفسه، ص ٧.

على أساس التواضع اللغوي^{٢١}. على حدّ عبارة خالد ميلاد، أمّا اتجاه المُطابِقة في هذا الصّنف من الأعمال فمزودج، فهو من القول إلى العالم ومن العالم إلى القول. وتتمثل البنية التركيبية للإيقاعات في^{٢٢}. أنا فعل متضمن في القول م_١س + م_٢س.

١-٢-٣ الأعمال اللغوية غير المباشرة:

يعرف "باتريك شارودو ودومنيك منغنو" في معجميهما لتحليل الخطاب عمل اللّغة غير المباشر بقولهما "نقول عن عمل أنّه عمل لغة غير مباشر (وهو اختزال لقولنا عمل لغة مصاغ صياغة غير مباشرة) إذا عبّر عن قيمته تحت عمل آخر ففي مثال "يمكنك أن تغلق الباب؟" يعبر قيمة الأمر بواسطة عمل سؤال ظاهرياً^{٢٣}. وقد صاغ سيرل سؤال يُلخّص إشكالية الأعمال اللغوية غير المباشرة يتمثل في: "كيف يمكن للمتكلّم أن يقول شيئاً ويعني ذلك الشيء ولكّنه يعني كذلك شيئاً آخر؟"^{٢٤}. ثم كيف يمكن للمخاطب أن يفهم المعنى المقصود من العمل اللغوي غير المباشر إذا كانت الجملة في مدلولها الحرفي تعني شيئاً آخر؟ كما نجد في أغلب لغات العالم ثلاثة أنواع أساسية للجملة^{٢٥}. جملة تقرير وجملة استفهام وجملة أمر، وتتمايز هذه الأنواع من الجمل في ملامحها الصرفية التركيبية. وترتبط هذه الأصناف الثلاثة للجملة عادة بالقوى الأساسية المتضمنة في القول وهي على الترتيب: الإخبار، السؤال، والأمر/الطلب. ففي حالة وجود ارتباط مباشر بين نوع الجملة والقوة المتضمنة في القول نكون إزاء عمل لغوي مباشر، أمّا إذا غاب هذا الربط المباشر بين نوع الجملة والقوة المتضمنة في القول يصبح الأمر متعلقاً بعمل لغوي غير مباشر، فمتى استعملنا إنشاء صريحاً لتحقيق طلب مثلما هو الحال في المثال التالي: - طلب منك أن تمرّر لي الملح. يقولها متكلّم للمخاطب وهما على مائدة الطعام) أو استعملنا فعل أمر كما هو الحال في هذا المثال: - مرر لي الملح. يكون الأمر متعلقاً، في كلا المثالين بعمل لغة مباشر.

أما حين تستعمل استفهاماً لتحقيق التماس، فنحن إزاء عمل لغوي غير مباشر، ومثال ذلك: - أيمكنك أن تمرّر لي الملح؟ تنبّه الدارسون إلى أنّ المسألة ليست دائماً على هذا القدر من الوضوح والانتظام فكثيراً ما توجد حالات تثير الكثير من الإشكاليات، ويتعلّق الأمر فيها بأعمال لغوية تتقوّض فيها العلاقة المباشرة بين الفعل الإنشائي والعمل اللغوي، ومن الأمثلة على ذلك: - أعدك بأن أطردك إذا لم تنته العمل مع نهاية الأسبوع.

فالعمل الإنشائي هنا هو أعد، غير أن القوة التي نعتقدها لهذا العمل اللغوي هي إمّا التهديد وإمّا التحذير، ومن هنا نكون غير قادرين دائماً على تحديد العمل اللغوي حتى مع جمل تضمّ فعلاً إنشائياً. وقد ميز "سيرل" في الأعمال اللغوية بين العمل الأوّلي، وهو العمل الذي يقصد إليه المتكلّم، وميزته أنّه يمثل دلالة غير حرفية، وبين العمل الثانوي وهو العمل المتحقق في القول وميزته أنّه يمثل الدلالة الحرفية للجملة. كيف نحلّل الأعمال اللغوية غير المباشرة؟ إن فكّ تشفير أعمال اللّغة غير المباشرة يقتضي كما يذهب إلى ذلك "باتريك شارودو ودومنيك منغنو" زيادة على طبيعة المحتوى القضوي - بنية الملفوظ - وفي الشفاهي ما يرافقه من تنغيم وإشارات ملمحية حركية: بعض قواعد اشتقاق القوة المتضمنة في القول أسكونبر ١٩٨٠ وكذلك تدخل تلك القواعد التحادثية التي بين هـ. ب. غرايس ما تظلم به من دور في تولّد المستلزمات، وأيضاً بعض المعطيات المقامية المفيدة خاصة في ما يتعلّق بالصيغ غير المباشرة وغير

^{٢١} خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٥٠٨.

^{٢٢} م س = مركب اسمي .

^{٢٣} باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠٠٨ ص ٢٣.

^{٢٤} شكري المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، ص ١٠١ .

^{٢٥} Encyclopedia of language and linguistics (Eli2), p : 661.

الاصطلاحية بقدر ما تكون القيمة المتضمنة في القول قويّة التقنين تقل حاجتها إلى المقام ليتم تحيينها والعكس بالعكس..^{٢٦}.

وخلاصة ما جاء، أنّ نظرية الأفعال الكلامية التي أسّسها رّواد الفلسفة التحليلية^{٢٧}. تمثل لب الدراسة التداولية ويعد فعل الكلام الإنجازي المحور الذي تدور حوله جميع مباحث هذه النظرية، التي بين أصحابها من خلالها أن وظيفة اللّغة لا تقتصر على مجرد الوصف لما يجري في الواقع: كما كان سائد في الدراسات السابقة، بل اعتبرت أداة فعالة في هذا الواقع ومؤثرة فيه.

١-٢-٤ العمل اللغوي الأكبر عند فان دايك

يعتبر مفهوم العمل اللغوي الأكبر من أهم المفاهيم التي يقوم عليها لانسجام التداولي للخطاب، وقد عرّفه وبيّن دوره "باتريك شارودو ودومنيك منغنو" في معجمهما لتحليل الخطاب بقولهما "يستعمل مفهوم عمل اللغة الآتي من فلسفة اللغة في تحليل الخطاب لا لوصف أعمال لغوية معزولة بقدر ما هو مستعمل لوصف مقاطع أعمال تكوّن نصّاً ... يقاس الانسجام التداولي للخطاب بالإمكانية المتوفرة للموؤل ليشقّق عملاً لغوياً أكبر، إمّا بطريقة تدريجية (حسب ظهور أعمال لغوية صغرى صريحة أو ضمنية)، وإمّا بطريقة استرجاعية (انطلاق من آخر عمل معبر عنه، أو يمكن اشتقاقه)"^{٢٨}. وقد اهتم فان دايك في مقاربتة التداولية لتحليل الخطاب بدراسة الأعمال اللغوية وتتابعاتها وأطلق على هذا المبحث مصطلح تداولية الخطاب إذ يقول: "وقد ركّزت دراستي عن التداوليات، بطبيعة الحال على تداوليات الخطاب وليس على تداوليات الجمل المنفصلة"^{٢٩}.

ويرى "فان دايك" أنه في أغلب الوضعيات التواصلية ينشئ مستعمل اللغة عددا من الأعمال اللغوية يمكن لمحلل الخطاب أن يتعامل معها كمقاطع، فبعض الأعمال اللغوية تمثل وحدة مستقلة عما قبلها أو يليها من أعمال لغوية للمتكلم نفسه أو غيره من المشاركين في العملية التواصلية. وينطلق "فان دايك" من اعتبار الأعمال أحداثا اجتماعية من نوع مخصوص، غالبا ما تنتظم في سلسلة تحترم التتابع في الزمن والترابط والانسجام. فقد اهتم بشروط الترابط الذي يقوم بين جملة الأعمال اللغوية لخطاب ما، واهتم أيضا بقيود الارتباط بين مقاطع الأعمال اللغوية المنجزة من قبل متكلم مفرد أو متكلمين مختلفين. ويرى "فان دايك" أنّ عمليتين لغويتين يرتبطان إذا كان أحدهما شرطا (أو نتيجة) لعمل لغوي آخر، ويعبر عن ذلك بقوله "واحد من الطرق النموذجية لترابط أعمال لغوية في مقاطع يقوم على الاعتماد الشرطي"^{٣٠}. توضيحا لذلك يضرب الباحث المثال التالي:

- "ليس لديّ ساعة" / " هل يمكن من فضلك أن تخبرني بالتوقيت؟" (قول يتوجه به متكلم لأحد المارة في الطريق العام).

تضطلع الجملة الأولى بدور الإخبار والثانية بوظيفة الطلب في مقام ليس من الملائم أو الطبيعي فيه التلطف لغريب في الطريق بالجملة الأولى فقط. فهذا المخاطب لا يهّمه أصلا امتلاك المتكلم لساعة من عدمه. يمثل الإخبار الوارد في الجملة الأولى إذن تحفيزا ودافعا يمكن أن يعمل شرطا للطلب. ويرى "فان دايك" أيضا، انطلاقا من هذا المثال، أن ملاءمته (Appropriateness) الشروط يمكن أن تكون نسبية (Relative): فعمل لغوي معزول من الممكن، ألا

^{٢٦} باتريك شارودو ودومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص ٢٤.

^{٢٧} أمثال فتغنشتاين وأوستين وسيرل وغيرهم.

^{٢٨} باتريك شارودو و دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص ٣٤٩.

^{٢٩} فان دايك، من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي، ص ٢٨.

³⁰ Teun A.van Dijk "one of the typical ways speech acts may be connected in sequences is by conditional dependence", MACROSTRUCTURES,p: 182.

يكون ملائماً، بينما يكون عاملاً ذا وظيفة في مقطع من الأعمال اللغوية. نفس الأمر في مستوى الوصف الدلالي للخطاب، فعدد الجمل لا تكون أحياناً ذات معنى أو قيمة صدقية (Truth value) إلا في مقطع معين ومخصوص من الجمل. يؤكد "فان دايك" وجود أنواع أخرى من العلاقات القائمة بين الأعمال اللغوية لها طبيعة وظيفية في مقاطع هذه الأعمال وتفسيرا لذلك يقدم الباحث هذا المثال: "هل يمكن من فضلك أن تخبرني بالتوقيت؟ ليس لدي ساعة". ويعرض "فان دايك" جملة من العلاقات الوظيفية الأخرى التي يمكن أن تقوم بين الأعمال اللغوية داخل مقطع ما أو داخل الخطاب ككل من أهمها علاقات التصحيح والتعارض والاحتجاج... بالإضافة إلى علاقة التلازم التداولي داخل الخطابة الحجاجية، والمتمثلة في استنتاج عمل لغوي سابق كما هو واضح في الأمثلة التالية التي أوردها الباحث³¹.

– إنني مشغول. لذا فلتصمت!

– إنه خطير. لذا احترس!

– "إنه خطير أفضل ما لديك". "لذا سأمنحك دراجة جديدة."

يمكن أن تترابط أعمال لغوية مختلفة لتعبر عن عمل لغوي واحد أساسي ويقدم فان دايك المثال التالي: - هل ممكن من فضلك أن تخبرني بالتوقيت؟ ليس لدي ساعة. ويضطلع عمل الأخبار في المثال الثاني بوظيفة الحدث المساعد أو الثانوي في تحقيق عمل الطلب الوارد استفهاماً. ويسمى "فان دايك" في هذه الحال عمل الإخبار "عملاً لغوياً تابعاً" ويكون هذا العمل متعلقاً بعمل لغوي آخر ويكون القول مضمناً فيه، من هنا تقوم بين الأعمال اللغوية في المقاطع علاقات تراتبية (Hierarchic).

وإذا اعتبرنا المقطع ككل عملاً لغوياً كلياً فإنه يتضمن أعمالاً لغوية ثانوية أو تفسيرية أو تحضيرية.

٣-١ السياق: السياق هو جملة الظروف الحاقّة بإنجاز فعل التلطف. ويعتبره مؤلفاً "تحليل الخطاب" باتريك شار دو دومينيك مفهوماً مرناً يمكن تصوّره بطريقة ضيقة (السياق المباشر) وهو السياق غير اللغوي في مستواه الضيق المباشر و يتمثل في الإطار المكاني والزّماني والمقام الاجتماعي المحلي الذي ينخرط فيه التبادل التواصلي، والمشاركين في هذا التبادل (عددهم، خصائصهم، أوضاعهم وأدوارهم وكذلك العلاقة القائمة بينهم)، ونوع النشاط المعنوي، والقواعد المتحكمة فيه، في حين تنتمي إلى السياق الواسع جملة عناصر السياق المؤسساتي. والأمر نفسه ينطبق على السياق المقالي، فسياقه الضيق يمكن حدّه بالنص و سياقه الواسع يمكن أن يغطّى عن طريق التناص، امتداداً خطابياً غير محدود نظرياً³².

و السياق في علاقة جدلية مع الخطاب فهو كما يقول "شار دو ودومينيك منغونو": "نشاط مشروط بالسياق ومغير له في الآن نفسه، فالسياق هو معروض في مفتتح التفاعل "يبني في الوقت نفسه وبالطريقة التي يتم بها ذلك التفاعل والمقام المحدد بدء لا يبني بل يتحدّد بجملة الوقائع الخطابية. وبعبارة أخرى فإنّ العلاقة بين النصّ والسيّاق ليست أحادية الاتجاه و أنّها هي جدلية"³³. يرتبط السياق أيضاً ارتباطاً وثيقاً بشروط نجاح الأعمال اللغوية كما ذكرنا سالفاً فالمقاربة التداولية للخطاب تضبط شروط الأعمال اللغوية التي تجعل منها ملفوظات ناجحة.

١-٣-١ السياق عند فان دايك

³¹ Teun A.van Dijk , MACROSTRUCTURES , p: 183.

³² باتريك شار دو ودومينيك منغونو، معجم تحليل الخطاب، ص ١٣٣.

³³ المرجع نفسه، ص ١٣٣.

يرى فان دايك أنه لا يوجد فائدة في التكلّم عن ضروب إنجاز قوى أفعال الكلام خارجا عن السياق المحدّد تحديدا اجتماعيا: أي السياق الذي يكون فيه المخاطب حاضرا، والذي يحدث فيه تغيير ما على المخاطب طبقا لأغراض / ومقاصد المتكلم مع شرط التواضع والاتفاق^{٣٤}. فمن شروط الوعد مثلا أن يكون للمتكلم القصد والثنية الصادقة في أن ينجز زمن المستقبل عملا لأجل المخاطب، وقد يعبر غالبا عن هذا العمل بفعل صريح من قبيل: سأزورك في العطلة القادمة. أو بشكل غير صريح قائم على استنتاج يصل إليه المخاطب. وقد مثلت فكرة تحديد مستويات كبرى وصغرى في دراسة الخطاب أساسا مهما ومنطلقا رئيسيا في أغلب ما اطلعنا عليه من أعمال "فان دايك" فقد قسم الباحث البنى النصية إلى بنى صغرى وبنى كبرى بالإضافة إلى البنى العليا، وصنف الانسجام إلى انسجام محلي متعلق بالبنى الصغرى وانسجام كلي موضوعه الخطاب ككل. امتد هذا المنهج في البحث والتنظير أيضا ليشمل السياق، فالسياقات بالنسبة إلى "فان دايك" تتوزع على نوعين "سياقات صغرى" "Micro Contexts" و "سياقات كبرى" "Macro Contextes" ومن هنا نفهم اختياره لمصطلح السياقات الكبرى عنوانا لأحد أهم مقالاته^{٣٥}. ويشتمل السياق عند "فان دايك" السياق اللغوي للكلمات أو الجمل، وفي الآن ذاته الوضعية الاجتماعية التي يجري بها الحدث التواصل. بالنسبة إلى "السياق اللغوي"، يرى الباحث أنه لا يقتضي في تحليل الخطاب معالجة خاصة بما أن أحد أهم الأهداف الرئيسية لهذا التحليل أن يدرس "المحيط الخطابي" "Discursive surroundings" للكلمات أو الجمل، فيهتم في دراسة الانسجام مثلا بالتقارن الإحالي "Co-reference" أو العائد الإحالي « Anaphora »...
 أما بالنسبة إلى مفهوم السياق الغير لغوي فيهتم بتفسير تنزل الحديث (Talk) أو النص في ظرفية معينة، وهو أمر يراه الباحث محتاجا إلى تنظير أكثر وضوحا في ما يتعلّق على سبيل المثال بالخصائص المناسبة " Relevant properties" للمشاركين و هوياتهم و أدوارهم و العلاقات بينهم بالإضافة إلى الأعمال الاجتماعية " Social action" المنجزة في مثل هذه الوضعية التواصلية.

١-٣-٢ السياق عند براول ويول

اهتم بروان ويول في كتابهما " تحليل الخطاب " بالسياق فاعتبراه من مبادئ انسجام الخطاب و قد اعتمد في دراسة دور السياق في تحقيق انسجام النص على إسهامات هايمس و ليفيس و قد اشتمل السياق عند هايمس الأشخاص المشاركين في الحدث الكلامي من باث و متلق ، و الموضوع المتحدث عنه أو محور الحديث حسب عبارته ، و الظرف و يقصد به السياق الزماني و المكاني للحدث ، و أيضا الوضع الجسمي للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم و تقاسيم الوجه^{٣٦}. بالإضافة إلى ذلك يشتمل السياق القناة و هي كيفية ربط حلقة الوصل بين الأطراف المشاركة في الحدث الكلامي لفظا أو كتابة أو غيرهما من قنوات الاتصال كاستعمال الدخان ... و من عناصر السياق الأخرى التي يذكرها " هايمس " نجد أيضا الشفرة المستعملة أي اللغة أو اللهجة المعتمد ، وصيغة الرسالة أو جنس الخطاب ، مثال ذلك حديث عبار أو خطبة أو حكاية شعبية أو قصيدة شعريّة ... ، و نجد أيضا الحدث و يقصد به " هايمس " طبيعة الحدث التواصلية الذي يمكن أن نضمّن داخله نمطا خطابيا معينا، فالخطبة أو الدعاء يمكن أن تكون جزءا من حدث أكبر هو الصلاة في الجامع مثلا.

يرى بروان ويول أنّ على محلّل الخطاب / النص الأخذ بعين الاعتبار السياق التي يظهر فيه الخطاب والسياق يتألف في نظرهم من المتكلم / الكاتب و السامع / القارئ والزمان والمكان والرسالة. لأنه يؤدي دورا فعالا في تأويل

^{٣٤} فان دايك، النص والسياق، ص ٢٦٦.

^{٣٥} Teun A. van Dijk , Macro contexts , website of Teun A. van dijk : <http://www.discourses.org/download/articles/>.

^{٣٦} براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٤٨.

الخطاب. وتأكيدا على أهمية السياق في التأويل يقدم الباحثان ثلاثة أمثلة معزولة عن سياقاتها الأصلية التي ظهرت فيها. فيعتبرها سياقات " حيث يقرأ المحلل النص و عليه أن يهيئ بالتالي مميزات السياق الذي يمكن أن تكون قد وردت فيه " ^{٣٧}.

Squashed insect don't bite mad mental rule

هذه الكلمات معلومة معجميا عند القارئ إذا نظر إليها معزولة عن بعضها ولكنّ تجميعها على هذا الشكل يوحي بالغموض والغرابة. ظهر هذا الخطاب على أحد جدران مدينة كلاسكو مدينة في (اسكندلندا) مكان الخطاب، أما زمانه فهو التسعينات التي اشتهرت بظهور خطابات مماثلة على جدران هذه المدينة مما يفيد أن المتلقي لديه تجربة فيما يخصّ نوع الخطاب هذا والمتلقي هو ساكن مدينة كلاسكو وعلى الأقل الاسكونلاندي أو البريطاني عموما . فهذا الخطاب يعبر عن تفاعل بين عصابات ما. فالمعرفة الموسوعية للعالم يمكن أن تخبرنا بأنّ الكاتب هو عضو ضمن أعضاء Mod mental وهي عصابة وإن المتلقين المعنيين هم أعضاء في عصابة the insect وبناء على هذا يمكن للمتلقين أن يؤول الخطاب للسياق على أنّه موجّه من عصابة إلى عصابة أخرى محدّرة إيّاها من التماذي في خرق قانون العصابة الأخرى. يعتبر الباحثان أنّ هذا المثال هو خطاب خاصّ غير موجّه إلى عموم المتلقين. وبرهنا على أهمية السياق ودوره في التأويل يقدّمان دليلا قائما على تغيير أحد عناصر السياق وقد ضربا لذلك مثلا:

- هل أنت هنا دائما؟ - أنا هنا غالبا مرة في الشهر حيث أتيت الآن لرؤية أبنائي. يقول: " وأنّ ما يهّمنا هنا هو أصناف الاستدلالات المختلفة التي نقوم بها كمتلقين وهي متعلقة بمتغيرات مثل عمر وجنس" المتكلم كنتيجة لسماع ما قاله ^{٣٨}. فإذا كان المتكلم رجلا يبلغ من العمل ٧٠ سنة فيفترض أنّ الأبناء راشدون وأنّ زيارته لهم مرة كل شهر لا يترتب عنها أمرا استثنائيا، أما إذا كان رجلا شابا في الثلاثينات فأبناءه مازالوا براعم، فهناك إذا مانع لإقامته معهم إمّا لظروف عملية أو لانفصاله عن زوجة. وهذه الاستدلالات المختلفة لا تعود إلى لغة الخطاب السابق وإمّا إلى التغيير الذي حصل في المتكلم. هكذا برهن الباحثان على دور السياق في مواصلة الخطاب وفي انسجامه بالأساس.

٢-٤-٣ المعرفة الخلفية:

يعتبر براون ويول أنّ " تمثيلات المعرفة الخلفية تتسم بأنها منظمة بطريقة ثابتة كوحدة تامة من المعرفة الجاهزة في الذاكرة" ^{٣٩}. إلى حدّ أنّ رايسباك يقرّر دون تردد أنّ " عملية الفهم هي من عمل الذاكرة"، ومن ثمّ فإن: " فهم الخطاب يعد بالأساس عملية سحب للمعلومات من الذاكرة واسترجاعها، وربطها بالخطاب الذي يتفاعل معه" ^{٤٠}. ويقصد بالمعرفة الخلفية هو: أن المستمع / القارئ حين يواجه خطابا ما، لا يواجهه وهو خالي الذهن وإنما يستعين بتجاربه السابقة، فالمعروف أن معالجته للنص المعين تعتمد على ما تراكم لديه من معارف وخبرات سابقة، تجمعت لديه كقارئ متمرس، قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص و (التجارب) السابق له قرئتها ومعالجتها" ^{٤١}.

وقد بيّن براون ويول أنّ أهم المجالات التي صرفت عناية خاصة لتمثيلات المعرفة، هما مجالاً: علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي" فقد حاول العلماء الذكاء الاصطناعي أن يبرمجوا حاسوبا قادرا على معالجة خطابا معينة- أي فهمها وتأويلها - ولكن النتائج التي حقّقوها حتى الآن غير قابلة للمقارنة مع معالجة الإنسان، فإنها حقّقت مكاسب علمية مشجّعة لأنّ أهم عقبة تواجه هؤلاء، هي: أنّ ذاكرة الإنسان تتوفر على معرفة موسوعية غير قابلة للحصر، في

^{٣٧} المرجع نفسه ص ٤٢.

^{٣٨} المرجع نفسه ص ٤٥.

^{٣٩} براون ويول ١٩٩٧، ترجمة الزليطني والتريكي ص ٢٨٣، الخطابي ٢٠٠٦، ص ٦٢.

^{٤٠} المرجع نفسه، ص ٢٨٣.

^{٤١} محمد الخطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط٢، ص ٦١.

حين أن ذاكرة الحاسوب أضعف من أن تضم هذه المعرفة الواسعة الشاملة، لذا كان الحل هو " إنتاج بنيات معرفة متخصصة للتكيف مع خطاب يتطلب نوعاً خاصاً من المعرفة " ^{٤٢}.

وقد لاحظ دي بوجراند: " أن مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري داخل نص هي حالة خاصة من مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري في العالم بأسره. " أي أن الإنسان يمتلك معلومات موسوعية هائلة، تساعد على فهم الخطاب، من خلال التجارب السابقة، والخبرات العامة، وغيرها من المعلومات الأساسية المتوفرة لديه. لكن السؤال الذي ينبغي أن نسأله، هو: كيف نتمكن من تنظيم هذه المعلومات، والاقتصار على توظيف قدر محدود منها عند الحاجة؟ ^{٤٣}. وقد حصلت عدة محاولات لتقديم تصورات شائعة أو نموذجية حول: " معلوماتنا عن العالم، كأساس لتأويل الخطاب وفهمه فهماً صحيحاً. وهذه التصورات مستعملة في المناهج النفسية والحاسوبية لفهم الخطاب، وخاصة لتفسير نمط المعلومات التي يمكن توقعها، أو التنبؤ بها، والتي بإمكان الكاتب المتكلم المرسل، افتراض توقرها لدى السامع المستمع المتلقي، كلما تم وصف موظف معين " ^{٤٤}. ومثال ذلك، أن ملكاً دعا شاعراً لمأدبة الطعام، فقال الملك للشاعر: لما دعاه لتناول الطعام: "و"، فأجابته الشاعر قائلاً: "إن". ولم يتكلما ببنت شفة بعد هذين الحرفين وكل منهما فهم الرسالة ووعاها جيداً. فالملك كان يعني بقوله ذلك، الآية القرآنية ٢٢٤ من سورة الشعراء: " **وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ.** " ، وكذلك الشاعر كان يعني الآية القرآنية ٣٤ من سورة النمل: " **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.** " وكما كانت الخلفية المعرفية منظمة ومخزنة حسب أنساق ذهنية ما ثابتة ومقترنة بهياكل أخرى من الأنساق الذهنية الأكثر مرونة، فإنها تمنح محلل الخطاب طريقة معينة لمعالجة ما يحصل في أثناء إصدار الخطاب وتأويله، مما لا يحصل منذ البداية في كل مناسبة مثل: الإطارات، والمدارات والمخططات الذهنية، فهي وسيلة لتمثيل تلك الخلفية المعرفية التي تستعملها جميعاً، وتفترض أن الآخرين قادرين على استعمالها كذلك، في أثناء إصدارنا للخطاب وتأويلنا إياه تأويلاً صحيحاً ^{٤٥}.

٢- الانسجام التداولي في الدرس اللغوي العربي القديم ١-٢ الأعمال اللغوية:

ولعلّ نظرية الخبر والإنشاء هي الأقرب إلى نظرية الأعمال اللغوية الغربية المعاصرة. لم تنشأ هذه النظرية في التراث العربي مكتملة من أول أمرها كما يجمع على ذلك جل الباحثين، فقد مرت بمراحل وأطوار حتى استقرت على أسس واضحة نهائية على يد اللاغين المتأخرين.

٢-١-١ الأعمال اللغوية عند النحويين:

٢-١-١-١ التمييز بين الإنشاء والخبر:

لئن غاب مصطلح الإنشاء عن مصنفات النحويين المتقدمين، ولم يأت ذكره في كتاب سيبويه فقد ميّز النحاة بعده بين الإنشاءات والأخبار دون أن تخلو بحوثهم، كما يذهب إلى ذلك خالد ميلاد في أطروحته المتعلقة بالإنشاء في العربية من تردد واختلافات زادت درسه عمقا وغنا، ذلك أنها اختلافات تعكس في الحقيقة تشبّثهم بإبراز ما تختلف فيه الإنشاءات ذاتها من خصائص دلالية نحوية ^{٤٦}. وانقسم الإنشاء عند النحويين بعد سيبويه، كما يلخص ذلك الباحث نفسه، إلى: أولاً: إنشاء طلبى يتفرع إلى أمر ونهي واستفهام ونداء وتمن ورجاء، وهي أعمال لغوية يرى الباحث

^{٤٢} براون ويول، تحليل الخطاب ١٩٩٧، ترجمة في الزليطني، منير التريكي ص ٢٨٣-٢٨٤.

^{٤٣} ديبيجراند، ط ١٩٨٠، ص ٣٠ نقلاً عن براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة الزليطني والتريكي، ط ١٩٩٧، ص ٢٧٩.

^{٤٤} براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة الزليطني والتريكي، ص ١٩٩٧، ص ٢٨٢.

^{٤٥} المرجع نفسه، ص ٢٩٩.

^{٤٦} خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٣٠٧.

أنها تختص بتركيبات إعرابية مخصوصة. ويتولد من الأمر والنهي الإغراء والتحذير وهما كما يقول الباحث "ويختصان في الأقاويل الإنجازية بألفاظ مخصوصة مؤلدة من بنية الأمر والنهي كما يتولد من الأمر والنهي الدعاء في أشكال إنجازية مختلفة تسهم في تحقيق دلالتها مختلف المستويات النحوية والصرفية والمعجمية"^{٤٧}. بالإضافة إلى ذلك يتولد من الاستفهام العرض والتحضيض فيستقلان بتركيبات نحوية مخصوصة. **ثانياً: إنشاء إيقاعي يتحقق بقصد المتكلم ونيته وإرادته إيقاع الحدث، مثل "بعث وشريت" ثالثاً: إنشاء إيقاعي إفصاحي** يعبر المتكلم بواسطته عن انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه، ويشمل التعجب والمدح والذم والتكثير والتقليل وأسماء الأفعال الدليلة على غير الطلب من مثل هيهات وأفّ وسرعان وشئان"^{٤٨}.

٢-١-١-٢ بعض الأعمال اللغوية:

حرص النحاة على الاهتمام بالمعاني والأغراض البلاغية للخطاب وأصروا على أنّ البنية التركيبية تابعة للوظيفة التواصلية. فقد تناولوا الكثير من المعاني المتعلقة بإنجازية الأساليب العربية بخلفية تداولية وتنضوي ضمن نظرية الخبر والإنشاء أفعالاً كلامية وأعمالاً لغوية أهمها:

■ فعل التأكيد:

عرض تواصلية يستخدمه المتكلم لتثبيت الشيء في نفس المخاطب وإزالة ما علق بها من شكوك، وقد عني بدراسته بعض المتأخرين من النحاة كالرضي الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، الذي حدّد الغرض منه في قوله: "فالغرض الذي وضع له التأكيد أحد ثلاثة أشياء؛ أحدها: أن يدفع المتكلم ضرر علمه السامع عنه، وثانيها: أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط... والغرض الثالث: أن يدفع المتكلم عن نفسه ظن السامع به تجوّزاً..."^{٤٩}. ولما كان الغرض من التأكيد هو تقرير الأمر وجعله ثابتاً ومتحققاً يمكن إفادته باستعمال ألفاظ وصيغ معروفة (كالتوكيد اللفظي، والتوكيد المعنوي، والقسم ... وغيرها)، فهذا يؤكد ارتباطه بطرفي الخطاب المتكلم والسامع)، وعليه فإنّ مراعاة حال السامع وكونه شاكاً أو متيقناً، هي التي تدفع المتكلم إلى تأكيد كلامه، فإذا ما كرّر اللفظ نبه المخاطب له، ومنعه بذلك من الشكّ أو توهم الغلط، وهذا ما حاول الرضي بيانه في تعريفه السابق، وهو ما يؤكد العلاقة الوثيقة بين التراكيب اللغوية ومستعملها، فتأكيد المتكلم أمراً ما وتقديره إنّما يرجع إلى ما يصبو إليه من مقاصد وأغراض يريد إيصالها إلى السامع.

■ فعل الإغراء والتحذير:

التحذير والإغراء من الأساليب التعبيرية التي درسها النحاة، والتحذير هو تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه"^{٥٠}. نحو: (الأسد الأسد) أي: احذر الأسد. وأمّا الإغراء فهو: "تنبيه المخاطب على أمر محمود ليفعله"^{٥١}. نحو: (المروءة المروءة) أي: الزم المروءة، وقد لزم حذف العامل فيهما (الفعل) لارتباط ذلك الحذف بأغراض تواصلية محدّدة يقتضيها المقام، وذلك أنّه لما كان قصد المتكلم تنبيه المخاطب وتحذيره من شيء ما حتى يتجنبه، فإن ذلك يتطلب الإسراع في ذكر المحذر منه بأبلغ ما يمكن التعبير عنه، بحيث يضيق الوقت إلّا عن ذكره دون العامل)، فقصد

^{٤٧} المرجع نفسه، ص ٣٠٨.

^{٤٨} المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

^{٤٩} الرضي الأستراباذي، شرح الكافية، تحقيق حسن بن محمد بن إبراهيم الحفطي، نشر وطباعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٩٣، ص ١٠٤٩.

^{٥٠} ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د طردت، ج ٤، ص ٧٥.

^{٥١} المرجع نفسه، ص ٧٩.

المتكلم من حذف الفعل هنا هو الإسراع في التحذير، أي ليفرغ سريعا إلى لفظ المحذّر منه، وهو حصول الفائدة لدى المخاطب.

وبيّن الرضيّ دور كل من طرفي الخطاب (المخاطب والمخاطب) في إنتاج العبارات اللغوية على هيئة مخصوصة، انطلاقا من مراعاة قصد المتكلم وما يريد إيصاله إلى السامع من إفادة تتمثل في تنبيهه على أمر مكروه ليجتنبه، فوجب عليه حذف العامل (الفعل). "لأنّ القصد أن يفرغ المتكلم سريعا من لفظ التحذير حتى يأخذ المخاطب حذره من ذلك المحذور"^{٥٢}. والأمر نفسه بالنسبة لأسلوب الإغراء، فإنّ علة حذف العامل فيه، هي نفسها التي تقدمت في التحذير، لأنّ ذلك مما يقتضيه الترغيب والتشويق في الشيء، لأنّ المقام هذا يتطلب الإسراع في ذكر الأمر (المحمود)، فيُحذف الفعل للتعجيل، فيتهيأ السامع لتنفيذ الأمر الذي أُعري به، وحينئذ يتحقّق الغرض التواصلية لفعل الإغراء. والإغراء والتحذير من الأفعال الكلامية لكونهما يهدفان إلى التأثير في المخاطب وحمله على أداء فعل ما أو اجتنابه، ويمكن إدارجهما - حسب تصنيف سيرل الأفعال الكلام - في صنف الأمرات.

■ فعل الاستغاثة والندبة:

هما معنيان أسلوبيان متفرعان عن النداء في تصور النحاة، فالاستغاثة هي نداء من يعين على دفع بلاء أو شدة. وأما الندبة فهي نداء المتفجع عليه أو المتوجّع منه يقول سيبويه: "اعلم أن المندوب مدعو ولكنه متفجع عليه ... فإن شئت ألققت في آخر الاسم الألف لأنّ الندبة كأنهم يترنّمون فيها، وإن شئت لم تلحق كما لم تلحق في النداء"^{٥٣}. ويغلب في استعمال نداء المندوب (وا)، نحو: (وا سيدها ووا كبداه)، وقد تستعمل (يا) إذا لم يؤد ذلك إلى اللبس نحو: (يا لأقوياء للضعفاء). وللمنادى المندوب ثلاثة أوجه:

- أن يختم بألف زائدة لتأكيد التفجع والتوجع، نحو: (وا كبداه)
- أن يختم بالألف الزائدة وهاء السكت، نحو: (وا معتصماه)
- أن يبقى على حاله، نحو: (وا محمّد).

ويشترط النحاة في المنادى المندوب أن يكون معروفا لدى المتكلم، لأنّ الغرض من الندبة هو إظهار التفجع على المندوب، وذلك إنّما يكون بأعرف الأسماء وأظهرها للدلالة على الغرض المرجو من ذلك. يقول سيبويه: "لأنّك إذا ندبت فإنّما ينبغي لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تخصّ ولا تبهم"^{٥٤}.

■ الأفعال الكلامية في حروف المعاني:

تثري حروف المعاني اللغة العربية بأساليب كثيرة ومتنوعة، تصلح لمختلف المقامات التواصلية بحسب إرادة المتكلم وقصده، ومراعاة حال المخاطب للتأثير فيه. ولأهميتها في إثراء الأساليب اللغوية العربية وتنوّعها، فقد اعتنى بها النحاة وعقدوا لها أبوابا خاصة في مصنفاتهم، بل لقد أفرد لها بعضهم مؤلفات وكتبها خاصة لما رأوا لها من أهمية في التعبير والتواصل على نحو ما قام به المرادي (ت ٧٤٩هـ) في كتابه: (الجنى الداني في حروف المعاني) حين نجده يعرض للأداتين: (ألا) و(هلا) الذالتين على العرض والتحضيض، وهما معنيان متقاربان لدلالة كل منهما على الطلب. فالعرض: هو الطلب برفق ولين، وهو المعنى المستفاد من الأداة (ألا)، إذا وليها فعل، نحو قوله تعالى من

^{٥٢} الرضيّ الأسترابادي، شرح الكافية، ص ٥٧٣.

^{٥٣} سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٢٢٠.

^{٥٤} سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٢٢٧.

سورة المائدة الآية ٦٣: "أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ". أو إذا وليها اسم على تقدير فعل، كقول الشاعر: (ألا رجلا، جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت). والتقدير: ألا تروني رجلا^{٥٥}.

وأما **التحضيض**: فهو المعنى المستفاد من الأداة (هلا)، وهو يعني الطلب بشدة، وقد يؤدي هذا المعنى بالأداة (لولا) إذا واليها فعل مضارع، نحو قوله تعالى: "لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ". والفرق بين معنيي **العرض** و**التحضيض** كما يرى المرادي هو: "أنك في العرض تعرض عليه الشيء لينظر فيه، وفي التحضيض تقول: الأولى لك أن تفعل فلا يفوتك... ولذلك يحسن قول العبد لسبيده: ألا تعطيني، ويقبح لولا تعطيني"^{٥٦}.

٢-١-٢ الأعمال اللغوية عند البلاغيين:

١-٢-١-٢ الأعمال اللغوية الغير المباشرة:

تنبّه البلاغيون العرب القدامى، ضمن دراستهم للإنشاء والخبر، إلى ظاهرة الأعمال اللغوية غير المباشرة، فنظروا في معاني الكلام وقسموها إلى **معان أول ومعان ثوان**، فكانت المعاني الأول كما يقول التّهانوي: "هي مدلولات التراكيب والألفاظ التي تسمى في علم النحو أصل المعنى. والمعاني الثواني الأغراض التي يساق لها الكلام"^{٥٧}. والأمر نفسه ما قصده الجرجاني في تمييزه بين المعنى ومعنى المعنى. لتقابل بذلك ما اصطاح على تسميته المحدثون من منظري التيار التداولي ب**الأعمال اللغوية غير المباشرة**، وهي معان تتولد في حال إجراء الكلام على خلاف ما يقتضيه المقام والحال. وقد اعتبر خالد ميلاد أن مذهب البلاغيين في تحديد المعاني الثواني منطلقه مبدأ عام يتمثل في أنه متى امتنع إجراء أبواب الإنشاء على الأصل تولد منها معان بحسب المواقع وقرائن الأحوال... وقد سعوا إلى تطبيق هذا المبدأ على مباحث **الاستفهام والأمر والنهي والتمنى والنداء**. وتميّز منهجهم عموماً بتحليل المقام وتتبع قرائن الأحوال المانعة من إرادة المعنى الحقيقي للوصول إلى المعنى الثاني المراد^{٥٨}. تخرج إذن معاني الطلب الأصلية الخمسة، كما رآها السكاكي، حين يمتنع مقامياً إجراؤها على الأصل إلى معان أخرى كال**إنكار** و**التهديد** و**الزجر** و**التقرير** و**التوبيخ** و**التعجيز**...

وقد ساق السكاكي لذلك أمثلة في "مفتاح العلوم" في معرض دراسته للطلب يقول: "متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل، تولد منها ما ناسب المقام، كما إذا قلت لمن همك همّة: لبيك تحدّثني، امتنع إجراء التمني، والحال ما ذكر على أصله، فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموح في حصوله، وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال،... أو كما قلت لمن تراه لا ينزل: "ألا تنزل فتصيب خيراً"، امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلًا، ويوجّه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: ألا تحب النزول مع محبتنا إياه، وولد معنى العرض، كما إذا قلت لمن تراه يؤدي الأب: أتفعل هذا؟ امتنع توجّه الاستفهام إلى فعل الأذى، لعلمك بحاله، وتوجّه إلى ما لا تعلم، ممّا يلابسه، من نحو أتستحسن، وولد الإنكار والزجر... أو إذا قلت، لمن يدّعي أمرًا ليس في وسعه: افعله، امتنع أن يكون المطلوب بالأمر، حصول ذلك الأمر في الخارج بحكمك عليه بامتناعه، وتوجّه إلى مطلوب ممكن الحصول، مثل: بيان عجزه، وتولد التعجيز والتحدّي"^{٥٩}.

^{٥٥} ينظر: المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢، ص ٣٨٢.

^{٥٦} المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، ص ٣٨٢، ٣٨٣.

^{٥٧} خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٣٨٢-٣٨٣.

^{٥٨} المرجع نفسه، ص ٤٢٧-٤٢٨.

^{٥٩} السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٤١٦-٤١٧.

٢-٢-١-٢ الخبر والإنشاء:

وقد قسم البلاغيون المتأخرون اللفظ المفيد قسمين كبيرين، **خبر وإنشاء**، فالكلام عندهم كما يقول القزويني إما خبر أو إنشاء، وزادوا في تفصيل الخبر، وقسموا الإنشاء قسمين رئيسيين هما:

- **إنشاء طلبي**: وهو ما يستدعي مطلوباً يكون غير حاصل وقت الطلب كما يقول السكاكي. ويشمل هذا القسم عند جمهور العلماء **الاستفهام والأمر والنهي والتمني والترجي والنداء**.

- **إنشاء غير طلبي**: وهو إنشاء خال من الطلب، ويشمل أفعال المقاربة وصيغ العقود وأفعال المدح والذم والتعجب وكم الخبرية ورب^{٦٠}. وقد تناول البلاغيون العرب ظاهرة الأفعال الكلامية ضمن مباحث علم المعاني، وتحديدًا في نظرية الخبر والإنشاء كما ذكرنا سابقاً إذ مدار البلاغة - عندهم - هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والحال هي ما يدعو المتكلم إلى إيراد كلامه على وجه مخصوص يقتضيه المقام التخاطبي ليؤدي به المعنى المقصود إلى المخاطب. ومقتضى الحال مختلف كما أن مقامات الكلام متفاوتة ومختلفة. فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقديم يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف^{٦١}. وهكذا فإن لكل مقام مقال تقتضيه الظروف والملابسات المحيطة بالخطاب وأحوال المتخاطبين.. وهذا ما يؤكد عناية البلاغيين العرب واهتمامهم بالبعد التداولي للغة، وبخاصة فيما يتعلق بظاهرة الأفعال الكلامية التي تبرز بوضوح من خلال الكثير من الأساليب البلاغية العربية، ومنها: بعض الأعمال اللغوية

٢-٢-١-٣ أسلوب التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير من الأساليب البلاغية التي تختص بها اللغة العربية، وهو أسلوب كثير الورد في كلام العرب، وقد تناوله بالدراسة علماء البلاغة، كما تناوله علماء النحو وعلماء التفسير للوقوف على معاني الآيات القرآنية التي ورد فيها. إن الغاية التي من أجلها يلجأ المتكلم إلى تقديم لفظ وتأخير لفظ آخر أثناء كلامه ليست مجرد العناية والاهتمام فحسب، وإنما يعود سببها إلى بواعث وأغراض تداولية يحكمها المقام، ويوجهها السياق الذي يجري فيه الكلام.

والأمثلة على ذلك كثيرة في الخطاب القرآني، ومنها قوله تعالى في الآية ١٥١ من سورة الأنعام: " **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ". فالآيتان متشابهتان من حيث تضمن كل منهما فعلاً كلامياً توجيهياً هو (النهي الصريح عن قتل الأولاد) إلا أنهما تختلفان من حيث السياق الذي وردت فيه كل منهما (سبب النزول) إذ وردت الآية الأولى (آية الأنعام) في سياق قتل الآباء الفقراء لأولادهم، فقال تعالى: " **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ** ". أي لا تقتلوا أولادكم بسبب فقر حال بكم، فناسب هنا تقديم رزق الآباء على الأولاد، " **نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ". أما الآية الثانية (آية الإسراء) فقد وردت في سياق قتل الآباء لأولادهم وخاصة الإناث منهم خشية الفاقة والفقر، فقال تعالى: " **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ** ". أي خشية فقر شديد يحل بكم، وذلك لأنّ الخشية من الشيء تكون قبل وقوعه، فقدّم الأهم - هنا - وهو رزق الأولاد على الآباء لأنه أنسب^{٦٢}.

٢-٢-١-٤ أسلوب الحذف:

^{٦٠} انظر الرسم التمثيلي لأقسام الإنشاء عند شرح السكاكي في أطروحة خالد ميلاد الإنشاء في اللغة العربية بين التركيب والدلالة، ص ٣٤١.

^{٦١} الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط ٣، ١٩٩٣، ج ١، ص ٤٢.

^{٦٢} محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، ١٩٨٤، ج ١٥، ص ٨٨.

الحذف من الأساليب البلاغية الشائعة في جميع اللغات ومنها اللغة العربية، عقد له ابن جني بابا في (الخصائص) سماه (... في شجاعة العربية)؛ جاء فيه: قد حذف العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه^{٦٣}. فقد يلجأ إليه المتكلم ليحذف بعض الأجزاء من كلامه لدلالة السياق عليها، وهو يرتبط بنص الخطاب كما يرتبط بحال السامع وبعلاقته بذلك الخطاب وهو ما يؤكد مراعاة البعد التداولي لهذا الأسلوب البلاغي، إذ إن من دواعيه أن يرى المتكلم أحيانا أن ترك الذكر أفصح من الذكر، وأن الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة كما جاء في تعريف الجرجاني له: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، واتم ما تكون بيانا إذا لم تبين"^{٦٤}. يفهم من كلام الجرجاني أن مراعاة حال السامع، والمقام الذي يجري فيه الخطاب هو ما يجعل المتكلم - في الكثير من الأحيان يلجأ إلى الحذف بغرض الإيجاز في الكلام، واختصار المسافة من أجل إيصال أفكاره وتبليغها إلى مستمعه، هذا الأخير الذي يُفترض بأن يكون دوما على علم بمواطن الحذف، وبالقرائن الدالة عليه، من خلال العلاقة التي تربطه بالمتكلم عند تلقي الخطاب.

٥-٢-١-٢ أسلوب الالتفات

أسلوب الالتفات هو من الأساليب البلاغية التي اهتم بدراستها البلاغيون وعلماء التفسير، وسمي بذلك لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى أخرى؛ كانتقال الخطاب من صيغة الحاضر إلى الغائب، أو من صيغة الغائب إلى صيغة الحاضر، وقد سمي (شجاعة العربية) لأنها تختص به دون سائر اللغات. والالتفات كما يرى الإمام الزركشي (ت ٧٩٤هـ): "هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر: تطرية واستدراار للسامع، وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه"^{٦٥}. هو من أدق التعريفات التي تبرز الجانب الدينامي للغة، والذي يظهر من خلال التنوع في الأساليب الكلامية أثناء العملية التخاطبية، ولا شك أن ذلك لا يتأتى إلا حينما يراعي المتكلم أحوال السامع، والظروف المقامية؛ فيختار من الألفاظ ومن الصيغ ما يكون مناسباً لتحقيق غرضه التواصلي. "جنتم شيئاً إذا". والفائدة من هذا الالتفات كما يرى ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ): "هي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكر عليهم وموبخاً لهم"^{٦٦}. ولا شك أن الإنكار على المخاطب وتوبيخه مما يستدعي حضوره بين يدي مخاطبه حتى يكون أشد وقعا في نفسه، ولا يمكن أن يتحقق ذلك في حال غيابه، وهنا يبرز الفعل الكلامي للتأثير على المخاطب وحمله على الامتثال بفضل أسلوب الالتفات الوارد في هاتين الآيتين الكريميتين.

٥-٢-١-٢ أسلوب الحكيم

هو من الأساليب البلاغية، ويسمى كذلك بجواب الحكيم ويعني إجابة السائل بغير ما سأل عنه، أو بأكثر مما سأل، لأن حاجته لا تتم غالبا إلا بهذه الزيادة. وإذا كان هذا الأسلوب ينجر من طرف المتكلم، إلا أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالسامع ويتوقف عليه؛ إذ: "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال، وإما يحمل كلامه

^{٦٣} ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٦٢.

^{٦٤} عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

^{٦٥} الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ج ٣، ص ٣١٤.

^{٦٦} ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٩٣٩، ج ٢، ص ٦-٧.

على غير ما كان يقصد إشارة إلى أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال، أو يقصد هذا المعنى^{٦٧}. وأسلوب الحكيم شائع الاستعمال في كلام العرب، وفي القرآن الكريم، وقد ورد في مواضع كثيرة، منها الآية ١٣٩ من سورة البقرة: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ".

٢-١-٣ الأعمال اللغوية الخبرية عند الأصوليين

حدّد الأصوليون مجموعة من الظواهر المنتمية إلى الخبر مثل رواية والشهادة والدعوى والإقرار والنفي والوعد والوعد... وفي هذا السياق يقول القرافي: " الشهادة خبر والرواية خبر والإقرار خبر والمقدمة خبر والنتيجة خبر"^{٦٨}. يكشف هذا التحديد عن وعي ونضج كبيرين بدينامية الألفاظ وقواعد النظام اللغوي للخطاب القرآني والابتعاد عن مجال الدلالات المعجمية الثابتة الجامدة نحو فضاء الدلالات المتحركة والمنفتحة التي تفضي إلى استكشاف مثل هذه الظواهر اللغوية ومختلف العلاقات بين الألفاظ في مستوياتها المختلفة، إذ ثبت أنّ مثل هذه الظواهر اللغوية (الأفعال الإنجازية) تقترب إلى حدّ بعيد من تصنيفات محلّي الخطاب المعاصر تحليلاً تداولياً يراعى فيه الجوانب الخارجية لإنتاج الخطاب.

٢-٣-١ الشهادة والرواية

يرى القرافي أن الخبر يأخذ ثلاثة أشكال من الأفعال الكلامية وهي: رواية محضّة كالأحاديث النبوية. شهادة محضّة كإخبار الشهود عن الحقوق على المعيين عند الحاكم مركّب من الشهادة والرواية، وله صور عديدة (منها الأخبار عن رؤية هلال شهر رمضان)^{٦٩}. والظاهر أن هذا التفريق بين هذه الأنواع المختلفة يرتكز في نظر علماء أصول الفقه الإسلامي على ما يسميه القرافي بـ " الآثار المترتبة عن الخير والمتعلقة بالمخبر عنه. وهذه النقطة ينبغي الوقوف عندها لأنها هي التي تميّز بوضوح رأي القرافي من رأي سيرل Searle وغيره من اللسانيين حيث يفرّق بين الشهادة والرواية على النحو التالي: نوع المخبر عنه، فإن كان المخبر عنه أمراً لا يختص بمعنى فهو "رواية"، وإن كان المخبر عنه معيناً خاصاً فهو "شهادة"^{٧٠}. فاعلية السياق الاجتماعي الذي يكمن في أنّه ينظر من خلاله إلى ما هو رسمي " وغير رسمي " فما كان رسمياً كالامتنال أمام القاضي مثلاً فهو "شهادة"، أما ما هو غير رسمي فهو رواية"، ويشترط في الشهادة - على حدّ تغيير القرافي - " الذكورة والحرية وعدد معين من الشهود ... بخلاف الرواية"^{٧١}.

ولعلّ هذا المنحى التداولي الأصولي نجد له أثراً عند سيول Searle حين يتحدّث عن نمط الإنجاز للغرض المتضمن للقول^{٧٢} (Le Mode d'accomplissement du but illocutoire) فالأمدي يتصور شخصين يرويان خيراً، فالأول يقدّم خبره وهو في موقع الشاهد في محكمة، فلا يوصف فعله بأنه إخبار؛ بل إنّ ما يفعله هو قيام بشهادة.... أما الشخص الآخر فيقدّمه على أنّه خيراً عادي^{٧٣}.

٢-٣-١-٢ الدعوى والإقرار:

^{٦٧} السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٣١٩.

^{٦٨} القرافي، أنواع الفروق، ج١، ص ٧٤.

^{٦٩} المرجع نفسه، ج١، ص ٧٦.

^{٧٠} المرجع نفسه، ج١، ص ٧٤.

^{٧١} المرجع نفسه، ج١، ص ٧٤.

^{٧٢} Searle, sens et expressions, P82. Et voire vanderveken : Les actes de discours, P113.

^{٧٣} الأمدي: الأحكام في أصول الأحكام، ج٤، ص ٤٦٣.

إن الوعي بحركية اللغة وبمختلف الأنساق الخطابية هو الذي أوحى لعلماء الأصول بوضع معايير وضوابط تمكنهم من تحديد أنماط الأساليب من خلال الرصد والتمييز بينهما، فاعتبروا الدعوى والإقرار خبراً إلا أنهم فرقوا بينهما؛ فالدعوى "خبر عن حق يتعلّق بالمخبر على غيره"^{٧٤}. أما الإقرار فهو الخبر عن حق يتعلّق بالخبر ويضر به وحده" فلو أقرّ بأن عبده وعبده غيره حرّان أسقط ذلك من كونه إقراراً ويسمى بالإقرار المركّب"^{٧٥}. و طبقاً لما اقترحه سيرل Searle من معايير فإن هذه التفرقة تعود إلى شرط المحتوى القضوي Condition sur le contenu (Propositionnel)

٢-١-٣-٣ الوعد والوعيد:

يعتبر القاضي عبد الجبار الوعد والوعيد من الأخبار إذ يقول عن الوعد بأنه: " كل خبر يتضمّن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل"^{٧٦}. أما الوعيد فهو: " كل خير يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل"^{٧٧}. ما يمكن ملاحظته هو أن فعل المستقبل للمتكلم هو القاسم المشترك بين الوعد والوعيد، إلا أنّهما يختلفان في كون أنّ فعل الوعد فيه نفع للمخاطب، أما فعل الوعيد فيه ضرر له وفي السياق نفسه يذهب السيوطي. إلى أنّ من أقسام الخبر "الوعد والوعيد" مشيراً إلى أنّ في كلام ابن قتيبة ما يوهّم أنه إنشاء"^{٧٨}. قد شدّد السبكي على أنّ الوعد " إن كان من الإنشاء فهو من الإنشاء غير الطلبي"^{٧٩}.

٢-١-٣-٤ الكذب والخلف:

يدرس القاضي عبد الجبار ظاهرتي الكذب والخلف ويحلّهما إلى مرتكزاتهما المعرفية المرتبطة بالممارسة الخطابية والفعلية فيقول: " الكذب هو كل خبر كان له مخير لكان مخبره لا على ما هو به"^{٨٠}. أما الخلف فهو: " أن يخبر أنه يفعل فعلاً في المستقبل ثم لا يفعله"^{٨١}. رسم حقل دلاليّ هذا التمييز بين الكذب والخلف، فالكذب فعل كلامي محض سواء كان خبراً أم إنشاءً، بينما "الخلف" فعل أو سلوك عام، قد يكون بالكلام أو بغير الكلام، فمن وعد بالأمر يحضر ثم حضر يكون فعله " غير كلامي"، وأمّا من وعد بالأمر ثم تكلم ففعله كلامي، فالثاني مندرج ضمن الأفعال الكلامية، أما الأول فليس مندرجاً بينهم"^{٨٢}.

٢-١-٣-٥ النفي:

يعرّف الرازي النفي بأنه: " القول المقتضى بصريحة نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات"^{٨٣}. يبقى النفي في المنظومة اللغوية الأصولية إحدى أهم الظواهر الكلامية التي توظف لفهم غايات الخطاب وروح الدلالات فيها وبذلك لا يتردّد الزركشي في اعتباره " شرط الكلام كلّّه، لأنّ الكلام إمّا إثبات أو نفي"^{٨٤}. ولعلّ الذي يعطي للنفي ميزته

^{٧٤} القرافي، أنوار الفروق، ج ٤، ص ١١٩٠.

^{٧٥} المرجع نفسه، ج ٤، ص ١١٩٠.

^{٧٦} المرجع نفسه، ج ٤، ص ١١٩٠.

^{٧٧} المرجع نفسه، ج ٤، ص ١١٩٠.

^{٧٨} السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، حققه فواز زميرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٦٣٢.

^{٧٩} السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص، ج ٢، ص ٢٣٧.

^{٨٠} القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٠٤.

^{٨١} المرجع نفسه، ص ١٠٤.

^{٨٢} مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص ١٤١.

^{٨٣} الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكرى شيخ أمين، دار العلم للمعلمين، بيروت، ط ١، ١٩٨٥، ص ١٤٩.

^{٨٤} الزركشي، البرهان في العلوم القرآن، ج ٢، ص ٣٩١.

الوظيفية (أي الدلالية والمعنوية) أو حتى الشكلية (أي النحوية والإعرابية) هو بروزه في البحث الأصولي كوسيلة تأخذ ميزتها من الأنساق اللغوية التي يتشكل منها الخطاب، يقول الزركشي في هذا السياق المنفي ما ولي حرف النفي، فإذا قلت: "ما ضربت زيدا"، كنت نافيا للفعل الذي هو "ضربك إياه"، وإذا قلت: "ما أنا ضربته"، كنت نافيا لفاعليتك للضرب، فإن قلت الصورتين دللتا على الضرب، فما الفرق بينهما؟ قلت من جهتين؛ أحدهما: أن الأولى نفت ضربا خاصا، وهو ضربك إياه، ولم تدلّ على وقوع ضرب غيرك لاعدمه، إذ نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ولا ثبوته والثانية نفت كونك ضربته ودلّت على أنّ غيرك ضربه بالمفهوم. ثانيهما: أنّ الأولى دلّت على نفي ضربك له بغير واسطة والثانية دلّت على نفيه بواسطة^{٨٥}.

إلا أنّه لا بدّ من الإشارة أنّ علماء أصول الفقه أولوا عناية هامة لمثل هذه الأفعال الكلامية التي تدخل ضمن الخبر ليس من الناحية التركيبية اللغوية فحسب، وإنّما من الناحية الدلالية التأويلية، وذلك بعد ما تأكّدوا أن المعنى يمكن استخلاصه من خلال تموقع الخطاب في الاستعمال اللغوي، وهذا ما بدا واضحا فيما تناوله محمد يونس حين قال: "إذا علم أو ظنّ أن المتكلم لا يكذب علم أن المقصود حمله على المجاز^{٨٦}". خلاصة القول إن العلماء العرب القدماء تناولوا هذه الظاهرة: الأعمال اللغوية ضمن مباحث نظرية الخبر والإنشاء، وراعوا في دراستهم لمباحث هذه النظرية الجانب الاستعمالي للغة؛ فاهتموا بدراسة السياق والمعاني، ومقاصد المتكلمين، وأحوال المخاطبين، كما راعوا مبدأ الإفادة ومطابقة الكلام المقتضى الحال، وهو ما يؤكد على وعيهم بالجانب التداولي للغة.

٢-٢ المقام في المدونة البلاغية العربية القديمة

١-٢-٣ المقام

لم يغب دور السياق أو المقام في تحديد معاني الكلام وارتباطها عن النحاة والبلاغيين العرب. وقد ذكروه وتحدثوا عنه كما ذهب إلى ذلك محمد الشاوش بـ: "طريقتين: حدّثوا عنه بعبارات عامة من قبيل المقام وشهادة الحال والعرف "ما أنت فيه تارة"، وحدّثوا عنه على باب التمثيل في تلك السياقات التي استهلّوها مثل قولهم: "كان تكون"....، "كان يكون" المخاطب..، "كان يكون المقام مقام كذا..."^{٨٧}. وعلى مستوى المعنى الاصطلاحي حاز مبحث المقام اهتمام النحويين والبلاغيين والمفسرين وعلماء القرآن. فقد اعتبروا المقام ومقتضى الحال محدّدين أساسيين للبنية النحوية المنجزة في الاستعمال. "فالمقامات والأحوال كما ذكر خالد بن ميلاد في أطروحته " الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: "هي التي تقتضي معاني النحو التي توصف عند كل من الجرجاني والسكاكي بكونهما خواص تراكيب الكلام التي تقتضيها الأحوال والأغراض"^{٨٨}.

يحمل لفظ المقام في المدونة البلاغية التراثية العربية القديمة تجاذب بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي. فهي تجمع حسب استعمالات البلاغيين العرب القدامى بين مدلولين مختلفين كما ذهب إلى ذلك صالح بن رمضان فالمقام يمثل أوّلا السياق الغير لغوي والمقصود به السياق الاجتماعي الحاف بالمقال (النصّ / الخطاب) كما جاء عند التداوليين المحدثين الغرب بـ "السياق أكبر" عند "فان دايك" والسياق الموسع عند "شاردو ومنغنو" و "براون ويول". ويمثّل المدلول الثاني مقتضيات اللغوية التي تفرضها وضعيات التواصل على المتكلم. وقد ظهر إيراد أهل البلاغة لأهمية المقام في اشتراكهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال منذ الجاحظ فاشتهرت مقولاتهم: "أنّ لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع

^{٨٥} المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٩٣.

^{٨٦} محمد يونس، علم التخاطب الإسلامي، ص ١٠٢.

^{٨٧} محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ج ١، ص ١٦٣.

^{٨٨} خالد بن ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٣٢١.

صاحبته مقام." وقد تناول الجاحظ في البيان والتبيين سياق المقام وأكد ضرورة مراعاة أحوال المتلقين وبيئة التلقي، ومما نقله عن ابن المقفع قوله: "إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب في سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتمّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو" ٨٩.

وتجمع مقتضيات المقام عند الجاحظ بين قضايا المخاطب والمتكلم والخطاب. فلا وجود لكلام إلا ووراءه متكلم ومخاطب ومقام استدعاه. وعلى المتكلم تطويع خطابه لمقتضيات ذلك في المقام، فالكلام يقوم على مشكلة بين أحوال المتكلم وأحوال المخاطب. وفي ذلك يقول الجاحظ: "الصبي عن الصبي أفهم، وبه أشكل، وكذلك الغافل والغافل، والأحمق والأحمق، والغبي والغبي، والمرأة والمرأة... ألا ترى أن أبلغ الناس لسانا وأجودهم بيانا وأدقهم فطنة، وأبعدهم روية، لو ناطق طفلا أو ناغى صبيا لتوخي حكاية مقدار عقول الصبيان، وانتبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بدا من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة والألفاظ الكريمة، وكذلك تكون المشكلة بين المتقنين في الصناعات" ٩٠.

وقد اهتمّ الجرجاني في نظريته البلاغية بالمقامات والأحوال، وقد فصل السكاكي القول في مراتب المقام في "مفتاح العلوم" بقوله: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة؛ مقام الشكر يباين مقام الشكايه، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال" ٩١.

أكد هذا النص على طوله، لحسن تعبيره ومقصد المؤلف، وتميز تناوله أهمية المقام ودوره في بناء انسجام خطابي. ويبرز هذا الوعي بقيمة المقام أكثر وضوحا في تناول البلاغيين لكل مقام من مقامات الخطاب على حدة.

لم يكن النحو العربي إذا نحا منطقيا صوريا مجردا خاليا من دراسة المعنى، بل إن حضور المقام والعناية بالمعنى كانت حاضرة وبقوة في تصورات النحاة وتحليلاتهم. ثم إن التغير في العلامات الإعرابية في أواخر الكلم ليس من عمل الألفاظ بعضها في بعض وإنما هو خاضع لأثر المعنى المقصود الذي يوجب ذلك التغيير، وللأحوال المقامية التي يسهم بها كل من المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالخطاب في التواصل. وقد أشار الدارسون القدماء أنفسهم إلى أهمية الاحتفاء بالمعنى باعتباره هو المقصود، وبيّنوا "أنّ النحو ليس هو الإعراب وحده" ٩٢. فالعلاقة وطيدة بين الإعراب والمعنى الذي يريد المتكلم إبلاغه إلى السامع، ولكي يتحقّق ذلك على المتكلم أن يختار الحالة الإعرابية المناسبة للتركيب اللغوي الذي يضمّنه المعنى المراد.

ذكر سيبويه (ت ١٨٠ هـ) في (الكتاب) في باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبه أمثلة كثيرة بيّن فيها أنه يجوز للمتكلم أن يختار الحالة الإعرابية التي يريد ما من رفع أو نصب أو جرّ في نفس التركيب اللغوي. من ذلك: (أتاني زيد الفاسق الخبيث) فإن أراد المتكلم التأكيد والإخبار رفع (الفاسق) و(الخبيث) فيقول: (أتاني زيد الفاسق الخبيث)، وإن أراد الشتم نصب اللفظين. فيقول: (أتاني زيد الفاسق الخبيث). يقول سيبويه: "تقول أتاني زيد الفاسق

٨٩ الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١١٦.

٩٠ الجاحظ، رسائل الجاحظ عبد السلام محمد هارون، دار الجبل بيروت، ط ١، ١٩٩١، ج ٣، ص ٣٧.

٩١ السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٢٥٦.

٩٢ ومن هؤلاء ابن الجنيّ (ت ٣٩٢ هـ) حينما يتحدّث عن غرضه من تأليف كتابه، (الخصائص) بقوله: "ليس غرضنا فيه الرفع، والتّصّب، والجرّ، لأنّ هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنّفة فيه منه. وإنما هذا الكتاب مينيّ على.. إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي" ابن الجنيّ، الخصائص، تحقيق محمّد علي النجار، المكتبة العلميّة، مصر، د ط، د ت، ج ١، ص ٣٢.

الخبِيث لم يرد أن يكرّر ولا أن يعرّفك شيئاً تنكره، ولكنّه شتمه بذلك^{٩٣}. وإذا كان للمتكلّم الحرية في اختيار الألفاظ والتراكيب والحالة الإعرابية التي تخدم غرضه التواصل، ليتمكّن من التأثير في المخاطب، فإن هذا الأخير يفرض على المتكلّم أن يكتفّ خطابه بحسب جنسه، وعدده، وحضوره أو غيابه وأكثر من كل ذلك فإن المخاطب يفرض على المتكلّم استعمال الأسلوب اللّغوي الذي يضمن وصول الرسالة إليه، وذلك لأنّ التراكيب اللّغوية التي ينتجها المتكلّم لا تكون بحسب قوالب شكلية تصب فيها المعاني، وإنّما تكون بحسب حال المخاطب وحاجته.

كما أنّ للظروف المقامية الخارجية المحيطة بالخطاب تأثيراً على بنية التركيب اللّغوي وحالته الإعرابية وبما يتناسب مع المعنى الذي يتضمّنه ذلك التركيب ففي باب: " هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً ويكون المبني عليه مظهراً " يعتمد سيبويه على الملازمة للخطاب فلعلّ سبب حذف المبتدأ بقوله: " وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربّي كأنّك قلت: ذلك عبد الله، أو هذا عبد الله أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته، فقلت: زيد وربّي، أو أحسست جسداً، أو شممت ربّاً فقلت: (زيد) أو (المسك) أو ذقت طعاماً فقلت: (العسل)^{٩٤} .

يعلّل سيبويه حذف المبتدأ - وهو عمدة في الكلام - في مثل هذه التراكيب على قرائن مقامية خارجية، ففي التركيب (عبد الله وربّي) علّل حذف المبتدأ اسم الإشارة (هذا) أو (ذاك) بسبب حال الرؤية، أي أنّه حينما رأى صورة عبد الله وقال: (عبد الله وربّي) فكأنّما قال: (هذا عبد الله)، والأمر نفسه بالنسبة للأمثلة الأخرى. فإنّ قرينة سماع الصوت، ولمس الجسد، وشمّ الرائحة هي التي سوّغت للمتكلّم حذف المبتدأ في هذه التراكيب وأمثالها. يعتمد النحاة في بعض الشواهد على قرائن تداولية تعليلاً وهذا دليل على اهتمامهم بالجانب التداولي للغة فقد أولى الدرس اللغوي العربي القديم الجانب التداولي المتعلق بأحوال المتكلّم وعلاقة الكلام بالسياق اهتماماً بالغاً، نجد آثار ذلك في مصنفات النحاة والبلاغيين والفلاسفة والأصوليين.

٢-٣ السياق

٢-٣-١ تعريف السياق

يتجادب مفهوم السياق الاصطلاحي فريقان فريق حصر السياق في الجانب المقالي فقط ضمن حدود السباق واللاحق، فهو يرى أن دلالة السياق مقصورة على المقال دون الحال وهو ما يسميه المحدثون **السياق اللغوي والسياق المقالي** يقول البناني (ت ١١٩٦): "السياق هو ما يدلّ على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه"^{٩٥}. أما فريق الثاني فيرى أنّ السياق شامل للمقال المتمثّل في السياق واللاحق وأيضاً للحال أو المقام. فالسياق إذا سياقان: **السياق اللغوي** أو سياق المقال، ويتمثّل في الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تحليله واستخلاص المقصود منه، السياق أو الحال أو **سياق المقام**: ويعنون به ما يصاحب النص من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه كحال المتكلّم والمخاطب، والغرض الذي سيق له ... الخ.

^{٩٣} سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩٨٨ ج ٢، ص ٧٠.

^{٩٤} سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ١٣٠.

^{٩٥} البناني، حاشية البناني على مجمع الجوامع، ج ١، ص ٢٠.

وإن رجح الكثير من الباحثين المذهب الأول في تعريف السياق وأنه يقتصر على السياق اللغوي أو المقالي فقط، وذلك لأنّ العلماء قديما استخدموا مصطلح السياق، وكانوا يقصدون منه السياق اللغوي أو المقالي، كما كانوا يفرقون بين دلالة المقال ودلالة الحال فيعتبرون عن الدلالة الأولى **بمصطلح السياق** فيما يعتبرون عن دلالة الحال **بالحال** أو **المقام** أو **قرائن الأحوال** ولم يعبر أحد منهم عن الحال بمصطلح السياق، ومن هؤلاء العلماء الذين فرّقوا بين دلالة المقال ودلالة الحال وعبروا عن الأولى بمصطلح السياق وعن الثانية بالحال أو المقام ابن دقيق العيد حيث قال: "السياق والقرائن فإنّها الدالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المُحمّلات، وتعيين المحتملات"^{٩٦}.

وقد بدت في نصوص أخرى وإن كانت قليلة دلالة واضحة على شمول مفهوم السياق لدلالة الحال أو المقام، فالحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) يقر صراحة في ثنايا كلامه اشتغال السياق على قرائن الأحوال فيقول: "كما أنّ الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السياق"^{٩٧}. كما جعل الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) دلالة الحال من السياق: "وأیضا فالأوامر والنواهي من جهة اللفظ على تساوي دلالة الاقتضاء، والتفرقة بين ما هو منها أمر وجوب أو نذب، وما هو فهي تحريم أو كراهة لا تعلم من النصوص، وإن علم منها بعض؛ فالأكثر منها غير معلوم، وما حصل لنا الفرق بينها إلا باتباع المعاني، والنظر إلى المصالح، وفي أي مرتبة تقع، وبلاستقراء المعنوي، ولم نستند فيه لمجرد الصيغة، وإلا لزم في الأمر أن لا يكون في الشريعة إلا على قسم واحد، لا على أقسام متعددة، والنهي كذلك أيضا، بل نقول كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصبيح، وإلا صار ضحكة وهزء، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد"^{٩٨}. أو جبان الكلب"^{٩٩}. وفلانة بعيدة مهوى القراط"^{١٠٠}. وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرد لم يكن له معنى معقول"^{١٠١}.

وعلى هذا الأساس عرّفت **دلالة السياق** في علوم التفسير: "بأنها بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن **السابق واللاحق** إلا بدليل صحيح يجب التسليم له"^{١٠٢}. كما عرّفت دلالة السياق القرآني بأنها بيان المعنى من خلال تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة"^{١٠٣}. سياق الخطاب عند المفسرين إذا هو تدبر سابق ولاحق الآية وقد قال ابن تيمية: "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين"^{١٠٤}. وقد أوضح في موضع آخر أن الاحتمال اللغوي وحده ليس كفيلا بالإصابة، وإنما لا بد من اقتترانه بدلالة السياق حتى يتعين المراد من هذه الاحتمالات اللغوية، ويؤكد أهميته هذا المعنى

^{٩٦} ابن دقيق العيد، إحكام شرح عمدة الأحكام، ج ٢ ص ٢١.

^{٩٧} ابن حجر العسقلاني، شرح الباري، شرح صنيع البخاري ج ٩ ص ٩٧.

^{٩٨} يقال فلان عظيم الرماد أي كثير إ طعام الطعام، انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لنصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبي الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، ج ٢ ص ١٢٢.

^{٩٩} يقال فلان جبان الكلب كناية عن الجود والكرم، وكثرة قراه للأضياف، لأن جبان الكلب يكون لكثرة الواردين عليه من الأضياف انظر المنهاج الواضح للبلاغة ج ٣، ص ٨٠، ص ٣٣٣.

^{١٠٠} فلانة بعيدة مهوى القراط كناية عن طول العنق فهوى القراط هو المسافة بين شحمة الأذن إلى الكتف، وطول هذه المسافة يفهم منه أن العنق طويل المنهاج الواضح للبلاغة الحامد عوني ج ٥، ص ١٠٤.

^{١٠١} الشاطبي، بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الموافقات، ج ٣، ص ٤١٩-٤٢٠.

^{١٠٢} عبد الحكيم القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال ابن حرير، ص ٦٢.

^{١٠٣} عبد الرحمان عبد الله المطيري، السياق القرآني وأثره في التفسير، ص ٧١-٧٢.

^{١٠٤} ابن تيمية مجموع الفتاوى، ج ١٥، ص ٤.

في بيانه لأسباب الخطأ في التفسير بقوله: "مراعاة مجرد اللفظ، وما يجوز أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام" ١٠٥.

٢-٣-٢ وظيفة السياق

يرى ابن تيمية أن سياق هو الذي ينشئ، الدلالة فالدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية^{١٠٦}. أما ابن الجزي.. في حديثه عن بيان وجود الترجيح يقول: بيان وجود الترجيح أن شهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل على ما قبله وما بعده^{١٠٧}. فالسياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ". كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق^{١٠٨}. كما أوضح ذلك ابن القيم وقد اخترنا له من القصيدة النونية هذه الأبيات تأكيدا على أهمية السياق في الوصول إلى أوضح المعاني. وإذا اتضحت المعاني وبانت تمكّن المفسّر من كشف القرائن والدعائم المعنوية التي تأذن بتناسب الآي والسور.

عجيبا واضح البرهان
فالعلم تحت تدبر القرآن
مون منه بأوضح التبيان^{١٠٩}.

انظر إلى نظم السياق نجد به سرّاً
فتدبر القرآن إن رمت الهدى
قالوا وإيراد السياق بين المض

وقد ذهب الزركشي نفس المذهب في قوله: "دلالة السياق فإنها ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظرته وانظر إلى قوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق^{١١٠}. وقال أيضاً: "واعلم أنّ القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عن يعتبر تفسيره..... وقسم لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب المفردات فيذكر قيّدا زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق"^{١١١}. يفهم من كلام الزركشي وما سبق من الأقوال أنّ للسياق تأثير على الدلالة في النص / الخطاب القرآني من ناحية وعلى الظواهر التركيبية من جهة أخرى فارتباط السياق بالدلالة في النص الخطاب القرآني يظهر في وجهين: - الوجه الأول: الكشف عن دلالة المعجمية الألفاظ والتوجيه إلى دلالتها. الوجه الثاني: الكشف عن دلالة التراكيب في النص / الخطاب القرآني، في هذا الإطار جاء الحديث عن سياق في حدود الدلالة وسياق للنص أو المقطع.

١٠٥ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص ٣٣.

١٠٦ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٦، ص ١٤.

١٠٧ ابن الجزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ١٩.

١٠٨ ابن القيم، بدائع الفوائد، ج ٤، ص ١٣١٤.

١٠٩ ابن القيم، أبيات مختارة من القصيدة النونية، ص ٤٩-٧٦.

١١٠ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

١١١ المرجع نفسه، يتصرف، ج ٢، ص ١٧٢.

الخاتمة :

تناولنا في هذا المبحث مسألة انسجام النص / الخطاب ضمن مقاربة تداولية شاملة تجمع بين الرصيد اللغوي للتراثي العربي وتستثمر منجزات اللسانيات الحديثة، فحدّنا جملة المفاهيم الأساسية المتصلة بما جاوز حدود الجملة ضمن نظرية الأعمال اللغوية من جهة والاهتمام بالسياق ومقتضى الحال من جهة ثانية ضمن اطارين معرفين مختلفين من جهة الحقبة التاريخية ومن جهة النظام اللغوي المعدل ذاتيا ومتفقين من جهة تمكين المعنى والاحتياط له^{١١٢}. ويمكن أن نختم بحثنا بجملة النتائج العامة إلى أفضل إليها العمل وتتمحور في ما يلي:

- السياق شرط ضروري لتحقيق وحدة النص.
- السياق في صلب المقاربة التداولية للانسجام يظهر أهمية المقام الخطابي وهويات المشاركين في فهم الخطاب وتحقق انسجامه.
- نستنتج أيضا وجود تقاطع مميز لبعض نتائج الدراسات الغربية فيما يتعلق بانسجام النص مع ما تنبّه إليه العلماء البلاغة والنحو في تراثنا العربي وهو تقاطع يبرز النضج الكبير الذي ميّز النظريات اللغوية العربية ممّا يجعلها حلقة هامة من حلاقات المعرفة الإنسانية وإثراء هامما للزاد اللغوي الإنساني.

^{١١٢} ابن خبي، الخصائص، ج ٣، ص ٧١.

- للمقاربة التداولية للانسجام الخطاب النص دور هام في تفسير المعنى وتأويله في ضوء السياق والمقام.
- نظرية الأفعال الكلامية التي أسسها رواد الفلسفة التحليلية تمثل لبّ الدراسة التداولية ويعد فعل الكلام الإنجازي المحور الذي تدور حوله جميع المباحث هذه النظرية، التي بيّن أصحابها أنّ وظيفة اللغة لا تقتصر على مجرد الوصف لما يجري في الواقع: كما كان سائد في الدراسات السابقة، بل اعتبرتها أداة فعالة في هذا الواقع ومؤثرة فيه.
- مفهوم العمل اللغوي الأكبر من أهم المفاهيم التي تقوم عليها المقارنة التداولية للانسجام الخطاب النحو العربي ليس نحوًا منطقيًا صوريًا مجردًا خاليًا من دراسة المعنى، بل إنّ حضور المقام والعناية بالمعنى كانت حاضرة بقوة في تصورات النحاة وتحليلاتهم.
- الوعي بحركية اللغة وبمختلف الأنساق الخطابية هو الذي أوحى لعلماء الأصول وضع معايير وضوابط تمكنهم من تحديد أنماط الأساليب من خلال الرصد والتمييز بينهما.
- مدار البلاغة العربية هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال.
- للسياق في المدونة العربية دور من إنشاء الدلالة والإرشاد إلى تبين المجلد وتعيين المحتمل.... بعدم احتمال غير المراد وتحقيق العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة.

المصادر والمراجع اللغة العربية

- (ابن الأثير) أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، القاهرة ١٩٣٩.
- (ابن تيمية) أحمد: - مجموع الفتاوى المكتبة الشاملة ٢٠٢١.
- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم جامعة الإمام محمد بن سعود ط٢، ١٩٩١.
- (ابن تيمية) محمد بن صالح عثيمين، مقدمة أصول التفسير، تحقيق عبد الله طيار، دار الوطن، الرياض ٢٠٠٦.
- (ابن حجر العسقلاني) أحمد بن علي، شرح الباري، شرح صحيح البخاري دار المعرفة بيروت ١٣٧٩ هـ.
- (ابن جني)، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق عبد الكريم بن محمد، المكتبة التوفيقية (دت).
- (ابن الجزري) أبو القاسم محمد، التسهيل لعلوم التنزيل دار الكتب العلمية ١٩٩٥ م.
- (ابن دقيق) العيد، إحكام شرح عمدة الأحكام، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة ١٩٩٧.
- (ابن القيم) أبو عبد الله محمد، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر (دت) القصيدة النونية.

- (ابن هشام) أفصح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية بيروت (دت).
- (الأستريادي) الرضي، شرح الكافية، تحقيق حسن بن محمد، جامعة الإمام محمد بن مسعود الرياض ١٩٩٣.
- (أحمد) عفيف، نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة الزهراء الشرق القاهرة ٢٠١٨.
- باتريك شاردو ودومنيك منغول معجم تحليل الخطاب المركز الوطني للترجمة تونس ٢٠٠٨.
- (براون ويول) تحليل الخطاب ترجمة الزليطي والتريكي، منتديات مجلة الابتسامة www.ibtesamh.com ١٩٩٧.
- (البناني) أبو عبد الله محمد، حاشية البناني على مجمع الجوامع.
- (بن عاشور) محمد الطاهر، التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر د ط، ١٩٨٤.
- (الجاحظ) البيان والتبيين رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ط ١، ١٩٩١.
- (الجرجاني) عبد القاهر، دلائل الإعجاز دار المعارف بيروت ١٩٤٨.
- جاك موشلار وأن بيول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، المركز الوطني للترجمة تونس ١.
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط٣، ١٩٩٣، ج ١، ص ٤٢.
- (الخطابي) محمد، مدخل إلى انسجام النصّ، المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩١.
- (ديبوجراند) روبرت، النص والخطاب.
- (الرازي) فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين دار العلم للمعلمين بيروت، ط ١، ١٩٢٥.
- (زرتسيسلاف وأورزنتاك)، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري مؤسسة للنشر والتوزيع مصر ط، ٢٠٠١س.
- (الزركشي) محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الحديث القاهرة ١٩٥٧.
- (السبكي)، بهاء الدين عروس الأفراح تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ط ١ ٢٠٠٣.
- (سعيد) حسن بحيري، علم لغة النص نحو أفاق جديدة مكتبة زرق الشق القاهرة ٢٠٠٧. ٢٠٠٤.
- (السكاكي)، سراج الدين مفتاح العلوم، المكتبة الوقفية ١٩٨٧ م.
- (سيبويه) عمران بن عثمان الكاتب، تحقيق عبد السلام هارون الخانجي، القاهرة ط ٥، ٢٠٠٤.
- (السيد) أحمد هشام، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- (السيوطي) جلال الدين الاتقان في علوم القرآن تحقيق فواز زميرلي، دار الكتاب العربي بيروت ٢٠٠٤.
- (الشاوش) محمد، أصول تحليل الخطاب.

- (شكري) المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، دار مسكيلاني للنشر – تونس، ٢٠٠٨، ص ٤٦.
- (عبد الحكيم) القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال ابن حريز، ص ٦٢، دار التدمورية دت.
- (عبد الرحمان) عبد الله مطيري، السياق القرآني وأثره التفسير، الموسوعة القرآنية، ٢٠٠٨.
- (عز الدين) عبد السلام، الإمام في بيان أدلة الأحكام، تحقيق رضوان مختار بن غريبة، دار البشائر الإسلامية للنشر بيروت ١٩٨٧.
- (فان دايك) تون، -النصّ والسياق ترجمة عبد القادر القيني أفريقيا الشرق المغرب ٢٠٠٨.
- من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي، ص ٣٤٩، مجلة فصول ٢٠١٠.
- (القرافي) شهب الدين، دار النوادر، دمشق ٢٠١٢.
- (القاضي) عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٨.
- (محمد يونس)، علم التخاطب الإسلامي، ص ١٠٢. مسعود صحراوي، التداولية، ط ١ ٢٠٠٥.
- (مسعود) الصحراوي، التداولية عند علماء العرب، دار الطليعة بيروت، ط ١ ٢٠٠٥، ص ٦-١٧.
- (محمد الشاوش) جامعة منوبة كلية الآداب، منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ١٣٥٨.
- (ميلاد) خالد الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٤٩٤.

اللغة الأعجمية

- Austin, J.L, Quand dire, c'est faire, Paris, Edition du seuil, 1970.
- (Lundquist) , Lita, la cohérence textuelle syntaxe sémantique pragmatique, Kobenhavn 1980.
- (Searle) John, sens et expression étude de théorie de langage, Edition de Menuit 1892.
- (Shirly) carter, la cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie a l'écrit harmattan, Paris 1993.
- (Van Dijk) , Teun A Macrostructures, Lawrence Erlbaum As Sociates, Publishers – 1980 Hillsdale, New Jersey.
- (Encyclopedia) of Language and Linguistics (ELL2), 2nd Edition (Elsevier, Now 2005).

مواقع الكترونية

- (براون ويول) تحليل الخطاب ترجمة الزليطي والتريكي، منتديات مجلة www.ibtesamh.com - الابتسامة ١٩٩٧.
- (Tenu) A.van Dijk, Macro contextes, website of Tenue A. Van dijk : <http://www.discourses.org/download/articles>.

